الباب الثانى

شعره

الفصل الأول

فنون شعره

تمهيد :

ليس من شك فى أن شعر الشماخ الذى تضمنه ديوانه (الذى حققناه) لا يمثل نتاجه الشعرى كله[1] ، وفيما جمعناه فى ملحق ديوانه أوضح شاهد على ذلك ، فقد رويت له أبيات مفردة وقطع توحى بأنها بقايا قطع أطول أو قصائد .

ومع ذلك ، فإن هذا القدر الذى توافر لنا من شعره — وإن لم يكن ممثلا لكل ما قال — فإنه يصلح فى رأينا لأن يكون أساساً لدراسة مذاهبه فى هذا الفن ، وتحديد ملامح شخصيته الفنية ، فى صورة إن لم تكن واضحة كل الوضوح ، دقيقة كل الدقة ، فالأمل ألا تكون جد بعيدة عن الدقة والوضوح .

وإذن ، فلتكن هذه الدراسة محاولة أولى رائدة فى سبيل دراسة فن الشماخ ، والقصد والأمل أن تلقى قبساً وضاء ينير معالم الطريق أمام دارسيه .

والشماخ وإن يكن معدوداً من الشعراء المخضرمين ، الذين أدركوا الجاهلية ، وعاشوا زماناً فى الإسلام ، فإن شعره فى مجموعة تتمثل فيه السمات الفنية للشعر الجاهلى بعامة ، والبدوى منه بخاصة — كما سيأتى — ولعل هذا يرجع إلى بيئته المحافظة التى عاش فيها ولازمها ؛ فقد عاش فى بادية نجد ، وهى أعرق البوادى العربية بداوة[2] ، وأشدها احتفاظاً بخصائصها ، وأقلها تأثراً بالعوامل الطارئة والأمور المحدثة ؛ فظل مرتبطاً بالبادية ، كما ظلت البادية مسيطرة على شعره — حتى بعد الإسلام — بروحها ، ومجتمعها ، وأسلوب الحياة فيها . .

ونحن نقرأ شعره من أوله إلى آخره ، فنكاد لا نجده متأثراً بالإسلام فى لفظ أو معنى أو أسلوب . .

---

(١) راجع : مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار (نشرة دار المعارف) .

(٢) راجع : ص ٣٤ من هذا الكتاب .

وشعر الشماخ يمثل فى البادية شعر البديهة والارتجال ، والطبع المتدفق ، والبعد عن التنقيح والمعاودة ، واختيار الكلام ؛ ولذا حفل شعره بالغريب من الألفاظ ، كما اشتمل على غير قليل من المعانى البدوية الجافية ، هذا بالإضافة إلى كثرة الاستطراد ، وخاصة حين ينزع بالقول إلى مذهبه فى الوصف ، فنه المفضل ، وحلبته التى برز فيها .

وهو بهذا يختلف عن تلك المدرسة ، التى يصفها الباحثون فى الأدب العربى القديم بأنها « مدرسة المجودين فى الشعر ، المتأنقين فى صوغه ، الذين لا يقولونه ارتجالا ، وإنما يتعملون فيه ، ويقلبونه على وجوهه المختلفة ، ينفون منه الغث ، ويختارون له جيد اللفظ والمعنى . . »[1] ويعنون بها تلك المدرسة ، التى كان أستاذها الأول أوس بن حجر ، والتى كان من أعلامها : زهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ، ثم كعب بن زهير والحطيئة ، معاصرا الشماخ .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن شعر الشماخ كثير السقط ، بادى الاضطراب ضعيف البناء ؛ فهو — على ارتجاله — مستو ، شديد الأسر ، غير مسترخ ولا ضعيف متخالف ، فى مجموعه كما سنرى .

غاية الأمر أنه لم يكن يعاود النظر فى شعره ، فينفى منه الوحشى الغريب من الألفاظ ، والبدوى الجافى من المعانى ، أو يربط بين الأجزاء غير المترابطة ، أو يعيد التناسب إلى الأجزاء غير المتناسبة فى القصيدة . . . أو نحو ذلك مما يتناوله التنقيح والمعاودة ، وإنما كان يرسله إرسالا ، ويسمح به عفو الخاطر ، فى غير أناة أو روية ، أو مقاومة للطبع .

١ — فنون شعره

يعد الشماخ من الشعراء الوصافين ، بل لقد طغت شهرته فى أدب الوصف على سائر موضوعات شعره ، حتى يكاد لا يذكر إلا فى هذا الباب . الذى أوشك أن

---

(١) النابغة الذبيانى : ١٦٢ .

يقصر شعره عليه ؛ إذ يكاد الوصف يمثل ثلثى شعره ، ويبدو أن هذا الفن كان يلائم طبع الشماخ ، وتستجيب له شاعريته . يقول ابن قتيبة : « والشعراء أيضاً فى الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المراثى ويتعذر عليه الغزل . . . »[١] إلخ .

وفى مذهبه الشعرى فى الوصف تتجلى شخصيته الفنية المبدعة ، وعلى الأخص حين يدلف إلى وصف الحمر الوحشية ، والقوس .

وقد عده العلماء بالشعر قديماً من أوصف الناس للحمر والقوس[٢] ، وبوصفهما اشتهر . ولتجويده فيهما كان الحطيئة والفرزدق يقدمانه بغاية التقديم[٣] ، كما سيأتى .

هذا وإن كان الشماخ قد برز فى الوصف ، وتجلت فيه قدرته على التصوير الدقيق ، ودقته فى الملاحظة ، وبراعته فى التعبير ، فإن قيثارة شعره لم تخل من أوتار أخرى ، يتفاوت ضربه عليها قوة وضعفاً ، وقلة وكثرة ؛ فى شعره ورجزه : نسيب ومدح ، وفخر ، وهجاء ، ونظرات عامة فى الحياة والناس ، بالإضافة إلى أبيات قليلة فى الرثاء .

وبالبحث فى فنون شعره ورجزه نستطيع أن نرتبها حسب أهميتها ، وعدد أبيات كل منها ، ترتيباً تنازليًّا على النحو التالى :

١ ــ الوصف : ٣٩٤ بيتاً
٢ ــ النسيب : ١٣٠ »
٣ ــ المديح : ٣١ »
٤ ــ الفخر : ٣٠ »
٥ ــ الهجاء : ٢١ »
٦ ــ نظرات عامة فى الحياة والناس : ١٤ بيتاً .
٧ ــ الرثاء : ٤ أبيات

---

(١) الشعر والشعراء : ٤٠ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٧٥ ، وانظر : الأغانى : ٨/٩٩ ، والإصابة : ٣/٢١١ .
(٣) الحيوان : ٥/٨١ ، وانظر : العمدة : ٢/٢٢٧ .

٨ ــ متنوعات ، وأبيات مفردة وأنصاف أبيات ، يصعب تحديد معناها ، ومعرفة المناسبة التى قيلت فيها : ٢٥ بيتاً

المجموع الكلى : ٦٤٩ بيتاً

ويظهر من هذه الإحصائية ، أن أوفر الموضوعات حظًّا فى شعره : الوصف ثم النسيب ومجموع ما قاله فيهما : (٥٢٤) بيتاً أى نحو ٨٠٪ من مجموع شعره الذى بين أيدينا تقريباً .

وأغلب الظن أن هذه الإحصائية لن تفقد مدلولها ، حتى لو قدر لنا أن نقف على ما غاب عنا من شعره .

على أن هذه الإحصائية يمكن أن تكون دليلا على ما سبق أن رجحناه ، من انعزالية الشماخ[١] وبعده ــ إلى حد ما ــ عن الاندماج فى الحياة العامة لمجتمعه ، ومن ثم انصرف إلى فن الوصف ، ينفس فيه عن موهبته الفنية ، وقل شعره فى الأغراض التى تنمو ، وتزدهر عند الشعراء الذين يندمجون فى حياة مجتمعهم ، ويشغلون باهتماماته : كالمديح ، والفخر ، والهجاء ، والرثاء ، والحماسة التى خلا شعره منها . بل إن شعره فى هذه الأغراض ــ على قلته ــ يدور فى جملته ــ حول نفسه ، يحفزه إليه أسباب ودواع شخصية ؛ فهو لا يصدر فيه عن رغبة فى خدمة الصالح العام ، والمحافظة على العصبية ، حتى نكاد لا نلمح فيه أثراً للعصبية القبلية ، أو محاولة لإذكائها ، على عكس الخط العام للأدب الجاهلى ــ فى هذه الأغراض ــ الذى كان يهدف إلى ذلك ، بحكم كونه أدباً جماعيًّا ، صادراً فى ظل نظام اجتماعى يهتم بإنتاج الشخصية الجماعية ، ولا ينتج الشخصية الفردية[٢] .

ويحس القارئ لشعر الشماخ أنه يقصد فيه إلى الوصف قصداً ، فهو همه ووكده فى قصيده غالباً ، فالوصف عنده ليس مدخلا لغرض من ورائه ، كما كان يصنع غيره من سابقيه أو معاصريه ، بل هو المدخل ، وهو الغرض جميعاً فى القصيدة ، وتأتى الأغراض الأخرى فى ثنايا قصائده ، يكاد لا يقف عندها حتى

---

(١) راجع : ص ١١٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : الأسس الفنية للنقد الأدبى : ٢٤ .

يخونه الطبع ، فإذا هو يجمل ويوجز ، ملتمساً الوسيلة إلى لونه المحبب ، فنراه يستطرد منها إلى وصف الإبل أو الحمر أو غيرهما .

وإذ قد قدمنا بهذا العرض العام لشعر الشماخ وفنونه . يجدر بنا الآن أن نتناول كل فن من هذه الفنون بالدراسة التفصيلية ، مبتدئين بعمدة شعره ، وهو الوصف .

(١) الوصف

الشماخ ربيب الصحراء ، وهو ككل الشعراء الذين أنجبتهم البادية ، قد رزق الحس المرهف ، والنظرة النافذة الفاحصة ، والتأثر الشديد بالبيئة المحيطة به ، والتى عاش فى مساس معها ، وتجاور مستمر .

وقد انطبع وصفه وتأثر بخصائص نفسيته البدوية ، فضلا عن طبيعة بيئته ومجتمعه البدويين ؛ فكان انعكاساً خارجيًّا لتلك البيئة ، منها يستمد موضوعات وصفه ، ويستفيد تشابيهه وصوره ، كما أن أسلوبه انطبع بهما .

فبالنسبة لموضوعات وصفه ، يظهر ذلك فى تردده على وصف بعض ما فى الصحراء ، من حيوان ووحش وطير ونبات ، وكذلك تصويره لبعض مظاهر الطبيعة فى هذه الصحراء ، من حر وسراب ومطر وسحاب وبرق ونجوم وكواكب . . ثم ما فى البادية ، من جبال وأودية وفجاج وقفر وخصب ومنازل ورسوم وأطلال وآبار وغدران . . . وغير ذلك ، مما ألم به الوصف الجاهلى بعامة .

إلا أن كثيراً من هذه الموضوعات لم يكن وصفها غرضاً أساسيًّا للشاعر ، فقد تعرض لها فى ثنايا أغراض أخرى ؛ فكان وصفها تبعاً لا قصداً ، بيد أن وصفه فى مجموعه يضعنا وجهاً لوجه ، أمام كثير من معالم هذه البيئة ، كأننا نعيش فى قلبها .

أما موضوعاته التى اهتم بها أكثر من غيرها ، والتى يبدو أنه لم يقصد أن يصف شيئاً سواها ، فهى الحمر الوحشية ، وما يتعلق بها ، من الحديث عن الصياد ، والناقة وما يتصل بها . من الكلام على الإبل ، ثم القوس .

وهذه الموضوعات الثلاثة تمثل أكثر شعره فى الوصف ؛ فمجموع ما قاله فيها : (٣٤٠) بيتاً ، أى بنسبة ٨٦ ٪ من مجموع شعره فى الوصف تقريباً .

ولعل اهتمامه بهذه الموضوعات خاصة . وتجويده فيها . يرجع إلى ما ذكره المرحوم مصطفى صادق الرافعى . معللا هذه الظاهرة . فى شعر الوصف عند العرب القدماء . فى قوله : « ولما كان الوصف عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية . . كان الشاعر منهم لا يتعاطى إلا ما يحسن من ذلك ضرورة . وقد يشارك فى أوصاف كثيرة ، ولكنه ينفرد بالشهرة فى بعضها من جهة العلم لا من جهة الصناعة ؛ فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته . وأقدر على استقصاء هذا العلم فى شعره ، كان أبلغ فى الوصف ، وأولى بالتقديم فيه . وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم ، وصرفته روعة العجب ؛ فإن العلم يعطى مادة الحقيقة ، والعجب يكسبها صورة من المبالغة الشعرية ، وكل وصف لا يكون عن هذين أو أحدهما فهو تزيد من الكذب . . . »[١] .

وفى تاريخ الشعر العربى القديم أمثلة عديدة لشعراء شاركوا فى كثير من الأوصاف ، إلا أن بعضهم انفرد بالشهرة فى بعضها ، كطرفة بن العبد فى وصف الناقة ، وامرئ القيس فى تصوير مناظر الصيد والطبيعة ، وزهير بن أبى سلمى فى وصف مناظر الصيد أيضاً ، والمشاهد الحسية فى الفلاة ، وحميد بن ثور فى وصف القطاة . . وغيرهم كثيرون .

ولنأخذ الآن فى تناول أهم موضوعات وصفه بالدراسة والتحليل ؛ لننتهى من ذلك إلى محاولة استخلاص سمات أسلوبه ، ومذهبه فى فن الوصف .

وصف الحمر الوحشية :

موضوع الحمر الوحشية فى شعر الشماخ . يمثل أكبر نسبة من شعره فى الوصف ؛ إذ بلغ ما قاله فى شأن هذه الحمر ، وما يتبعها من ذكر الصياد الذى يعترضها ، ويتربص لها . . ونحو ذلك : (١٧٢) بيتاً أى بنسبة ٤٣ ٪ من مجموع شعره فى الوصف .

---

(١) تاريخ آداب العرب : ٣/١٢١ – ١٢٢ .

وقد تردد هذا الموضوع فى معظم قصائد شعره ، وهى القصائد : ١ ، ٢ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ من الديوان . ومن ملحق الديوان : ٤ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٤ .

والشماخ — دائماً — يبدأ وصفه للحمر بتشبيه ناقته بالحمار الوحشى ، أو الأتان ، ثم يستطرد فى هذا الوصف فيتأنق فيه ما شاء له التأنق . فى دقة واستقصاء بالغين ، منصرفاً عن المشبه إلى المشبه به ، يسرف بوصفه . حتى ليخيل لنا أحياناً[١] أنه ما ذكر الناقة إلا ليتوسل بها إلى وصف هذه الحمر الوحشية .

وقد صور الشماخ هذه الحمر فى مختلف أحوالها وطباعها ، ورسم لها صورة خارجية واضحة القسمات ، كما نفذ أحياناً إلى نفسيتها من الداخل . فصور بعض حالاتها النفسية ، وما يعتمل فى داخلها ، من فزع واضطراب ، أو غيرة وغضب .. كما صور رحلاتها فى الصحراء ظمأى تنشد الماء ، وكأنما يصور رحلاته فيها ، كذلك لم يفته أن يذكر مواطنها ومرابعها . . . فهو يذكر هذه المواطن فى قوله :

كأنى كَسوْت الرَّحْلَ أَحْقَبَ ناشِطاً ... من اللاَّءِ ما بين الجِنَابِ وَيأْجَجِ[٢]

وفى قوله يصف ناقته ، ويشبهها بالعير :

بناجيةٍ كأَن الرَّحْل منها ... وقد قَلِقَتْ من الضُّمْر الضُّفُور
على أَصلاب جأْب أَخْدَرِىٍّ ... من اللأَّى تضمَّنهن إِيرُ[٣]

وهو يتحدث عن العير بما يصوره تارة مكتمل الخلق ، قوياً نشيطاً ، قد تكفلت الصحراء بتكوينه كما فى قوله :

كأَن قتودَ رحْلى فوق جَأْبٍ ... صَنِيعَ الجِسم من عَهْد الفَلاَة[٤]

وقوله :

أَقبُّ ترى عَهْد الفَلاة بجِسمه ... كعهد الصَّنَاع بالجديل المُحَمْلج
إِذا هو ولَّى خلت طُرَّة متْنِه ... مَرِيرَة مَفْتولٍ من القدِّ مُدْمَج[٥]

---

(١) انظر مثلا : القصيدة : ٢ من الديوان ، حيث يتحدث عن ناقته فى أربعة أبيات ، ثم يستطرد منها إلى وصف الحمر فى واحد وعشرين بيتا .

(٢) الديوان : ٢/٣٦ .
(٣) الديوان : ٦/١٠ .
(٤) الديوان : ١/٧ .
(٥) الديوان : ٢/٣٩ — ٤٠ .

وقوله :

أَطار عقِيقَه عنه نُسَالاً وأُدْمِج دمْج ذى شَطَنٍ بَديع[١]

فإذا أصاب المرعى الخصيب ، اكتنز لحمه ، وأدمج خلقه ، وفى ذلك يقول :

تربّع أَكْنافَ القَنَانِ فَصَارةٍ فَمَاوَانِ حتى قاظ. وهْوَ زَهُوم[٢]

ويقول :

خَلا فارْتعى الوَسْمِيَّ حتى كأَنَّما يرى بِسَفَا البُهْمى أَخِلَّةَ مُلْهِج[٣]

ويقول : عن الأتن مصوراً خصب مرعاها ، حتى تطاير عنها شعرها فى مراغها ؛ من أثر السمن :

رعتْ بارضَ الوَسْمِيِّ حتى تحَمْلَجتْ وطُيِّر عن أَقْرَابِهنَّ عقيق

كأَنَّ نُسَالاً فى المَرَاغِ وفوقه شَماطِيط سِرْبالٍ عليه مَزِيق[٤]

وتارة يصور العير ضامراً متغيراً من كثرة نشاطه وعدوه ، فإذا هو ممشوق القد نحيل كالمنيح من القداح :

أَضَرَّ به التَّعداءُ حتى كأَنه مَنِيحُ قِداحٍ فى اليدين مَشِيق[٥]

وقد يكون تغيره وهزاله من كثرة غشيانه لأتنه :

كأَن قُتُودى فوق جَأْبٍ مَطرَّدٍ من الحُقْب لاحَتْه الجِدَادُ الغَوَارِزُ[٦]

وهو لا يكتفى بهذا المظهر العام للعير ، بل يتناول أجزاء جسمه . فيصورها فى دقة وإيجاز متناهيين . فلسانه إذا صاح كالخشبة التى يديرها الحائك للثياب . وقد سقطت عن ظهر المنسج :

قُوَيْرِحَ أَعوامٍ كأَن لسانَه إذا صاح حِلْوٌ زَلَّ عن ظهرِ مِنْسَج[٧]

---

(١) الديوان : ١٠/٣٤ .
(٢) الديوان : ١٦/٣ .
(٣) الديوان : ٢/٤٤ .
(٤) الديوان : ١١/٢١ .
(٥) القصيدة السابقة : ١٩ .
(٦) الديوان : ٨/٥ .
(٧) الديوان : ٢/٣٧ .

وقوائمه قوية شديدة الوقع ، إذا وقعت على حجر رضته ، إلا أن يزول عن موضعه فيتدحرج :

متى ما تقع أَرْسَاغه مطمئنةً على حَجرٍ يَرْفَضّ أو يتدحرج (١)

ونواحى حوافره واسعة . منفصلة عن نسورها القوية الصلبة ، مثل نوى القَسْب الذى هو أشد النوى صلابة :

مُنِجٌّ الحوامِى عن نُسُورٍ كأَنَّها نوى القَسْبِ تَرَّت عن جَرِيمٍ مُلجلَج (٢)

أما حافر الأتان فهو مجتمع ، لم يرق فيؤلمها عند المشى ، أو يتفرطح فيكون معيباً ، وذلك قوله :

إذا كان منها موضع الرِّدف زيّفتْ بأَسْمَرَ لاَمٍ لا أَرَحّ ولا وَجِى (٣)

وهو قليل لحم القوائم ، متقبض النسى ، وذلك أشد له ، وأقوى لرجليه ، حتى تسلم من الترهل والاسترخاء ، أما ظهره فمكتنز اللحم ، وصوته حاد فيه بحوجة :

مَحْصُ الشَّوَى ، شَنِج النَّسى خَاظِى المطا صَحِلٌ يُرَدِّد خلفها التَّنْهاقا (٤)

وهو يسمعنا صوته على اختلاف شكوله ونبراته ، فإن هو هاج يطلب أنثاه ، صوت بها وكأن صوته لما فيه من الحنين وحسن الترجيع ، والتطريب ، صوت حاد بإبل يتغنى ويطربها ، أو صوت مزمار :

له زَجَلٌ تقول : أَصوت حادٍ إذا طلبَ الوسِيقة أَو زَمِيرُ (٥)

وإن غضب على أنثاه لنفورها منه ، انقلب إليها بعضها ، فى ثورة من الغضب ، يتردد منها صوته فى صدره ، يكاد لا يجاوز حلقه :

يعَضُّ على ذواتِ الضِّغْن منها كما عضَّ الثِّقافُ على القناة
بهمهمةٍ يردِّدها حَشاه وتأْبى أن تمَّ إلى اللَّهاة (٦)

---

(١) الديوان : ٢/٤٩ .
(٢) نفس القصيدة : ٤٨ .
(٣) نفس القصيدة : ٤٧ .
(٤) الديوان : ١٣/٢٦ .
(٥) الديوان : ٦/١٧ .
(٦) الديوان : ١/١٢ — ١٣ .

أما فى حالة هدوئه ومرحه فهو يعطى صوته لوناً آخر من التطريب . يمثله قوله :

إذا رجَّعَ التَّعْشِير رَدَّا كأَنَّه بِنَاجِذه من خلْف قَارحه شَجج
بعيدُ مدى التَّطْريبِ أُولَى نهاقِه سَحِيلٌ وأُخراه خَفِىٌّ المحَشْرَج (١)

وكذلك قوله :

كأَنَّ سَحِيلَه فى كلِّ فَجٍّ تغَرُّد شاربٍ ناءٍ فجوع (٢)

فانظر كيف صور ما فى صوته من حنين وترديد . فى هذه الصورة لصوت السكران البعيد عن أهله ، الذى فجع بمصيبة حلت به .

وهو يصور حركته وجلبته ، وهو يجرى هنا وهناك ، يتسمع الأصوات خشية أن يدهمه داهم على غرة :

وأَصبح فى الفلاة يُدير طَرْفاً على حَذَرٍ توجُّسُه كثير
له زَجَلٌ كأَنَّ الرِّجل منه إذا ما قام معتمدًا كسير (٣)

وهو هنا ينفذ من خلال هذه الصورة المحسوسة ، إلى تصوير حالة نفسية يتعرض لها العير . قوامها الخوف من خطر غامض . يدفعه إلى ترديد نظره فى الفلاة ، حذراً متوجساً حتى يطمئن على خلو المكان من القناصة ، فيرد بأتنه الماء .

كما يصوره ساكناً هادئاً مطمئنًّا لامتناعه على الصياد ، وسيطرته على أتنه فى ثقة واعتزاز . يبلغان حد الكبر والصلف ، وكأنه ملك متوج ينظر إلى رعيته :

يظلُّ بأَعْلى ذى العُشَيْرة صائماً عليه وقوف الفارسى المتوَّج (٤)

وأغلب الظن . أن إعجاب الشاعر بهذا العير . هو الذى جعله يتخيله فى هذه الصورة ، ويخلع عليه تلك المشاعر .

أما الأتن فهو يصورها ، وقد بلغ بها العير مأمنها ، فوقفت فوق المرتفع تحتك بعضها على بعض ، وهى تتمايل بأعناقها ، كأنها رماح مركوزة . مالت قليلا مع الريح :

---

(١) الديوان : ٢/٤٢ — ٤٣ .
(٢) الديوان : ١٠/٢٢ .
(٣) الديوان : ٦/١٩ — ٢٠ .
(٤) الديوان : ٢/٥٥ .

وظلت تَفَالَى باليفاع كأنها رماحٌ نحاها وجهةَ الرِّيح راكز [١]

كما يصفها بالدقة والصلابة واجتماع الخلق فى قوله :

كَقُضْبِ النَّبْع من نحُصٍ أوابٍ صَوَتْ منهنَّ أَقْراطُ الضُّروع [٢]

فإذا ولت مسرعة ، فظهورها مستوية ملساء ، قد خططت بخطوط سود ، وأخرى بيض لامعة ، فهى شبيهة بقصب الريش من عقاب تسرع فى طلب الصيد ، فهى لا تزال تخفق بجناحيها ، فيبدو ظاهرهما وباطنهما لأشعة الشمس ، التى تنعكس عليهما فيرى لها بريق ولمعان :

كأَن متونَهُنَّ مُوَلِّياتٍ عِصَىُّ جناحِ طالبةٍ لمُوع [٣]

وهذه الخطوط السوداء التى تعلو أصلابها ، والتى تخالف ما بقى من لونها تسيل على أذنابها من الخلف ، وتمتد إلى قريب من الأعناق ، ثم تعترض على الأكتاف متقطعة قصيرة ، حتى ليحسبها الرائى قد كسيت ثوباً مخططاً خلقاً ، أما بطونها فبيضاء ، وذلك قوله :

فى عانةٍ حُقبٍ علتْ أَصلابَها جُدَدٌ وحَانَ سوادُها الأَعناقا
سالتْ على أَذْنابها وتخالها بُرْدًا على أَكتافها أَخْلاَقا [٤]

ولا يفوت الشماخ أن يصف طباع هذه الحمر ، فيصورها لنا تصوير خبير بها ، عالم بطباعها وأخلاقها فى حالاتها المختلفة .

أما العير ، فهو غيور حريص على إنائه ، وهذه الغيرة تبدو فى صور متعددة ، منها عراكه مع الأقران ، وسطوته عليهم ليشردهم ، وينفرد بأنثاه :

مُدِلٌّ شَرَّد الأَقران عنه عِراكٌ ما تعاركه الحميرُ [٥]

ومنها ضمها وجمعها إليه ، وطرده وإفراده لأولادها من الجحاش ؛ حتى لا يشغلن بها عنه :

---

(١) الديوان : ٨/٥٦ .
(٢) الديوان : ١٠/٢٤ .
(٣) نفس القصيدة : ٢٩ .
(٤) الديوان : ١٣/٢٧ — ٢٨ .
(٥) الديوان : ٦/١٨ .

أَشَذَّ جحَاشَها وخَلا بِجُونٍ لَوَاقِحَ كالقسيِّ وحائلات [١]

وقوله :

يُطَرِّد عاناتٍ وينْفى جِحَاشَها كما كَانَ شذَّانَ البِكَار فنيقُ [٢]

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

ينفى الجحاش كما يُشذ بكَارَه قرْمٌ ينهِّزها يَعَضُّ حِقَاقا [٣]

ومنها شدة سطوته على من تحاول من إناثه أن تفارقه ، أو تشذ عن العانة :

إذا خاف يوماً أن يُفارق عانةً أَضرَّ بمَلْساءِ العجيزة سَمْحَجِ

أَضرَّ بمِقلَاةٍ كَثيرٍ لُغُوبُها كقَوْسِ السَّراء نَهْدَةِ الجَنْبِ ضَمْعَج

كأَن على أَكْسَائِها من لُعَابه وخِيفَةَ خِطْمىٍّ بماءٍ مُبَحْزج [٤]

وهذه الغيرة تصيبه أحياناً بالضمور والهزال :

فقد لَحِقَ منه البطنُ بالصُّلْبِ غيْرةً له حين يَسْتَوْلِى بهنَّ نهيق [٥]

وأحسب الشماخ هنا ، يعكس انفعالات الغيرة والحرص ، على الأنثى عند الإنسان على مرآة من نفس هذا الحيوان ، الذى يحرص على أنثاه حرصاً لا يقاربه فيه الإنسان ، ولعمرى ماذا تفعل الغيرة الشديدة بالإنسان أكثر مما فعلته بهذا الحيوان ! !

إن الإنسان إذا اشتدت غيرته على امرأته ، تملكته الوساوس ، وأصبح نهباً للتصورات والهواجس ، فيحرم جفنه الغمض ، وتعاف نفسه الطعام ، وتحترق أعصابه فى أتون من نار الاضطراب والشك ، فإذا هو شاحب اللون ، مهزول الجسم ، سقيم النفس ..

وهذا العير شرس بطبعه ، وهذه الشراسة لا يقتصر أثرها على الأقران ، فكثيراً ما تمتد إلى أنثاه ، بل قد تعود عليه هو بالأذى ، يظهر ذلك فى قوله :

كأَنى كسوت الرحْل جَوْناً رَبَاعِياً بِلِيتَيهِ مِن زَرِّ الحمير كُلُومُ

---

(١) الديوان : ٨/١ .
(٢) الديوان : ٨/١١ .
(٣) الديوان : ٢٩/١٣ .
(٤) الديوان : ٤٥/٢ – ٤٦ والبيت الزائد فى الهامش .
(٥) الديوان : ٣١/١١ .

عَلَنْدى مِصَكًّا قد أَضرَّ بعانةٍ لِمَا شَذَّ منها أَو عصاهُ عَذوم [١]

وقوله :

كمِشْحاجٍ أَضر بِخَانِفَات ذَوَابلَ مثلَ أَخْلاَق النُّسُوع [٢]

وقد مرت بنا أمثلة أخرى، تصور شراسته وسوء خلقه ، مع إنائه خاصة .

وقد بلغ شاعرنا من استقصائه وصف طباع هذا الحيوان، أن سجل تلك الظاهرة المألوفة عند الحمر — حتى الأهلية منها — وهى غرامها بشم ثرى أبوالها وأرواثها . أما عن العير وما يفعله حينذاك فيقول :

متى ما يَسُف خيشومُه فوق تَلعةٍ مَصَامَةَ أَعْيارٍ من الصَّيف ينْشِج [٣]

ويقول :

دَعُولٌ إذا ما استاف منها مَصَامةً له من ثَرَى أَبوالهِن نشيق [٤]

وأما عن الأتان فيقول : إنها حملت ، واشتهت على حملها أن تشم كل موضع بالت فيه :

وحِمَتْ على أَن قد يقرُّ بعينها تَشْميم كل ثرًى كبَيْتِ العَقْرب [٥]

وهنا يخلع الشاعر على أنثى الحيوان هذه ، خاصية من خصائص أنثى الإنسان، وهى الوحم على الحمل ، وهذه الإحساسات الإنسانية التى رأيناها فيما تقدم ، والتى سوف نراها فيما يتبع ، هى فيما أرى عناصر مستمدة من إحساسات الشاعر نفسه ، وتجاربه ، يخلعها على هذا الموصوف .

وبهذه الانطباعات النفسية ، أبدع الشماخ فى وصف هذا الحيوان أيما إبداع ، حتى ليقول فيه الوليد بن عبد الملك ، وقد أنشد شعراً له فى صفة الحمير ، معبراً عن إعجابه بدقته وإجادته فى وصفها : « ما أوصفه لها ، إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً »!! [٦]

---

(١) الديوان : ١/١٦ — ٢.
(٢) الديوان : ٢١/١٠ .
(٣) الديوان : ٥٣/٢ .
(٤) الديوان : ٢٤/١١ .
(٥) ملحق الديوان : ٥/٤ .
(٦) الأغانى : ٩٩/٨ .

ولشدة عنايته بوصف الحمر الوحشية ، واستقصائه فى هذا الوصف ، نراه يصف من شئونها ما هان وحقر ، مما كان ينبغى أن يصون شعره من مثله ، كقوله فى روث العير والأتان . وحرص الجُعْل على الوقوع عليه :

وإن يُلْقيا شَأْوًا بأَرضٍ هَوَى له مُفَرَّض أَطرافِ الذراعيْن أَفْلَج (١)

ليت شعرى !! أى معنى تحت هذا القول جعل الشاعر يحرص على التعبير عنه ؟!

وفى طبع الأتن أنها لا تمكن العير منها إذا حملت . وهذه طبيعة عامة فى أنثى كل حيوان ما عدا أنثى الإنسان !! إلا أن العير لا يفتأ أبداً يراودها ، ويلح فى طلب غشيانها ، وهنا تنعقد مشكلة بين العير وأتانه ، هو راغب ملح ، وهى رافضة نافرة ، هو يشتد فى الطلب وهى تمعن فى الهرب ، فيتبادلان الإيذاء ، ويصور الشماخ هذا كله ، فى صورة شائقة تصور اضطراب هذا الحيوان بين تلك الحالات الانفعالية . فيقول :

جَأْبٌ خلا بحلائلٍ وَسَقتْ له فحملْن لم يَغْرَمْ لهنَّ صداقا
فصددْنَ عنه إذْ وَحِمْن عواذلاً حتى استمرَّ وأَنْكر الأَخلاقا
يرمَحْنَه بعد اللِّمام أَوابياً شُمْساً فقد احْنقْنَه إحناقا (٢)

ويردد هذا المعنى فى صورة أخرى فيقول :

وَسَقْن له بروْضَة واقِصَاتٍ سِجَالَ الماء فى حَلَقٍ مَنيع
إذا ما اسْتَافهنَّ ضربْن منه مكانَ الرُّمْح من أَنف القَدُوع
وقد جعلتْ ضغائنهن تبدو بما قد كان نال بِلا شفيع
مُدِلاَّت يُرِدْن النأْى منه وهنَّ بعين مُرْتَقِبٍ تَبُوع (٣)

فانظر إلى قوله : « لم يغرم لهن صداقاً » وقوله : « بما قد كان نال بلا شفيع » ، إنى لأزعم أن الشاعر يقابل بين هذا الحيوان والإنسان فى هذه الحالة . فالإنسان — ديناً وعرفاً — لا يتمكن من الأنثى إلا إذا غرم صداقاً ، وشفعت له

---

(١) الديوان : ٢/٥٤ .
(٢) الديوان : ١٣/٣٠ — ٣٢ .
(٣) الديوان : ١٠/٢٥ — ٢٨ .

أمور ترغّب فيه ، أما هذا الحيوان فمحظوظ — او هكذا يبدو لى إحساس الشاعر — لا يغرم صداقاً ، كما أنه ليس فى حاجة إلى شفاعة .

وقريب مما تقدم قوله :

تَوَائِلِ من مِصَكٍّ أَنْصَبَتْهُ حَوَالِبُ أَسْمَهَرْيه بالذَّنِين
متى يَرد القطاةَ يَرِكْ عليها بِحِنْوِ الرأس معترض الجبين
شجٍ بالرِّيق أن حَرُمَت عليه حَصان الفَرْج واسقَة الجنين
طوتْ أَحشاءَ مُرْتِجَةٍ لوقتٍ على مَشَجٍ سُلاَلَتهُ مَهِين[1]

ولعل من أروع وأبدع ما صوره الشماخ ، فى موضوع الحمر الوحشية ، ذلك الدور الذى يقوم به العير ، فى جماعة الأتن ، فهو يمثل بينها شخصية الراعى المسيطر على رعيته ، والمسئول المخلص فى تحمل مسئوليته ، لا يألو جهداً فى الرعاية والعناية والتدبير ، وأخذ الرعية بالشدة ، تأديباً وتوجيهاً ، إن بدر منها ما يستوجب التأديب والتوجيه .

ومن روائعه فى تصوير ذلك قوله :

تَرَبَّعَ أَكْنَافَ القَنَانِ فِصارةٍ فَمَاوَانِ حتى قاظَ وهْو زَهُوم
إلى أن علاه القيظ واسْتَنَّ حوله أَهابِيُّ منها حاصِبٌ وسَمُوم
وأَعوزَهُ باقى النِّطافِ وقلَّصتْ ثَمَائِلها وفى الوجوه سُهوم
وحلَّأَها حتى إذا تم ظِمْؤُها وقد كاد لا يبقى لهن شحوم
فظل سَرَاةَ اليوم يقسم أَمرَه مُشِتٌّ عليه الأَمر ، أَين يروم ؟
وأَقلقه همٌّ دخيل يَنُوبُه وهاجرةٌ جرَّت عليه صَدُوم
برابية ينحطُّ عنها مُعَشِّرا ويعْلو عليها تارةً فيصوم
وظلت كأَن الطير فوق رءُوسها صِياماً تُراعى الشمسَ وهْو كَظوم
مخافة مخْشِيٍّ الشَّذَاة عَذَوَّر لنَابَيْه فِى أَكفالهن كُلُوم

---

(١) الديوان : ١٨/١٣ — ١٦ .

إلى أن أَجنَّ الليلُ وانقضَّ قارباً ... عليهن جَيَّاشَ الجِرَاءِ أَزُوم
وكَمَّشَهَا ثبْتُ الحِضار ملازمٌ ... لما ضاع من أَدْبارهن لَزوم
فأَوردها ماءً بِغَضْوَر آجناً ... له عَرْمَضٌ كالغِسْل فيه طُموم
بحضرته رامٍ أَعد سَلَاجماً ... وبالكَف طوْعُ المِرْكضيْن كَتوم
فلما دنتْ للماءِ هِيماً تعجَّلتْ ... رَبَاعِيَةٌ للهاديات قدُوم
فدلَّتْ يديها واستغاثت ببرده ... على ظمإٍ منها وفيه جُموم
فأَهوى بمفتون الغِرَارْين مرهف ... عليه لُؤَامُ الرِّيش فهو قَتوم
فأَنْفَذَ حِنْيَيْها وجال أَمامها ... طُمَيْلٌ يُفَرِّى الجوف وهو سليم
فولَّت وولى العَيرُ فيها كأَنما ... يُلَهَّبُ فى آثارهِنَّ ضَريمُ
وغادرها تكبُو لِحُرِّ جبينها ... كلا مَنْخِرَيْها بالنَّجِيع رَذُوم (١)

فشاعرنا فى هذه الأبيات يتحدث عن حمار وأتنه ، أدركه الصيف بحره ، وقد يبس الكلأ ، وصوّح العشب ، وشح الماء ، فتغيرت منها الوجوه ، وضمرت البطون ، فأقبلت تستجديه ماء وتسأله ورداً ، فصدها وبه مثل ما بها من الشهوة إلى الماء ، ولكنه يدبر ويقدر ، إنه يريد لها ولنفسه الرىّ ، ولكن قد يكون من دون ذلك موت أحمر ، فليؤجل الورد إذن ، ولكن ما بال هذه الأتن ترنو إليه ، وقد هدها الهزال ؟!! لقد نفد صبرها ، ولم تعد لها طاقة على تحمل الظمأ ، لقد أصبح الموقف جد خطير ، وعليه أن يبت فيه برأى ، ولكن ، ماذا يفعل ؟ وإلى أين يقصد بهن ؟ لقد اختلط عليه الأمر . . ومع ذلك فلا بد له من أن يفكر ويدبر ، وأنى له التفكير والتدبير ، وهذا الحر اللعين لا يريد أن يبرح ، إنه يشل تفكيره . . .

لقد بلغ به الضيق والهم حداً عظيماً ، فهو ينزل عن الرابية صارخاً منفعلا ، كأنما يلتمس الهرب مما اجتمع عليه من حر وهم ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن الصراخ لن يجديه ، فيعلو على الرابية مرة أخرى ، ويقف صامتاً يفكر فى أمره ،

---

(١) الديوان : ١٦/٣-٢١ .

ولكن هيهات للمهموم أن يستقر !! إنه لايزال يهبط ويصعد . . . أخيراً لقد اعتزم أمراً . . . لابد من الورد ، ولكن هل يستثير أتنه الآن للورد ، أم ينتظر إلى أن يحل الظلام ؟ إذا كان ولابد فلينتظر مغيب الشمس ثم يمض بهن .

كل ذلك والأتن تقف منكمشة ساكنة . قد حبست أنفاسها ، فهى تدرك أنه قلق ثائر مهموم ، وهى تخشى إن حركت ساكناً ، أن يصيبها من شره ما تعلم ، ولم يخف عليها أمره أخيراً . . لقد أدركت أنه اعتزم الورد بعد مغيب الشمس ، ومن ثم فهى تعلق بالشمس عيونها ، وكأنما تستحثها على المغيب .

وغابت الشمس وراء الأفق ، ونشر الليل رداءه الأسود على الكون ، فأقبل الحمار يحدو أتنه ، ويشتد فى سوقها مسرعاً ؛ يريد أن يصل بها إلى ماء : « غضور » يعلوه الطحلب ، متغير ، طامى الأرجاء . . . وظل يُعجِلها ويستحثها ، ويشتد فى سوقها حتى أوشك أن يدركه .

لقد بلغ العطش بهذه الجماعة مبلغاً عظيماً ، فها هى ذى أتان متقدمة تصل إلى الماء فتندفع إليه لتطفئ جمر ظمئها .

يا لحظها التعس !! لقد كانت مع المنية على موعد !!

فهناك عند الماء ، كان صياد مختف ، قد أعد نصالا مرهفة ، فى مُؤْخِرتها ريش كساها لوناً مغبرًّا ، كما أعد قوساً قوية ، شديدة القذف ، فما إن وضعت هذه الهادية فمها على الماء ، حتى أعجلها بواحد من نصاله اخترق جنبيها ، وشق جوفها وخرج ملطخاً بدمائها ، ودار أمامها قبل أن يسقط على الأرض سليماً لم يتثلم ، وتركها تسقط على وجهها ، والدماء تسيل من منخريها غزيرة متدفقة .

لقد حدث إذن ما كان يخشاه العير ، ولن يجدى الندم ، ولم يبق إلا الفرار .

وقد شاهدت الأتن بعينى رأسها ما وقع لصاحبتها ؛ فولت مسرعة ومعها العير ، مؤثرة ميتة الظمأ على فتكة السهام الصائبة .

ولعل أهم ما يلفت أنظارنا فى هذا الوصف ، تلك الحركات النفسية ، التى عنى الشاعر بتصويرها ، مرتبطة بما يصاحبها — طبيعيًّا — من حركات حسية ، توحى بها ، وتدل عليها .

وقد بلغ الشماخ قمة الروعة فى تصويره لقلق الحمار ، وهمومه ، ومشاعر الأتن ونوازعها. وهو فى تعبيره عن هذا القلق ، وتلك المشاعر ، يشخص مشهداً نفسياً إنسانياً يعكسه على هذا الحيوان ، فيصور التوتر والتنازع بين العواطف والنزعات ، من خوف ، ورغبة ، وقلق ، وتفكير وتدبير ، وحرص على العناية بمصير الجماعة .

فكما تدسّس الشاعر فى نفسية الحمار ، فوصف قلقه وهمه ، كذلك لم يفته أن يصور مشاعر الأتن ، وما كان يعتمل فى داخلها من رغبة فى الورد ، وخوف من أذى الحمار وتلهف إلى مغيب الشمس .

ولا شك فى أن معرفة الشماخ بانفعالات الحيوان هذه ، دليل على خبرته ومعرفته لما يجرى فى نفس الإنسان حين يمر بما يشابه هذا الموقف .

وهذه المعانى التى تناولها الشماخ فى النموذج الذى عرضناه ، نجده يلح على تصويرها فى عدة مواضع من شعره، فى صور تختلف تفصيلا وإيجازاً وتصويراً، فمن ذلك قوله :

كأَن قُتُودى فوق أَحْقَب قاربٍ ... أَطــاعَ له من رَامَتَيْن غَمِيرُها

. . . . . .

تربَّع مَيْث النِّير حتى تطالعَتْ ... نجومُ الثُّريا واستقلَّتْ عَبُورها

فلمَّا فَنَى الأَشْمَالُ غاضَتْ وقلَّصتْ ... ثَمَائِلها وتابعَ الشمسَ صُورُها

فظلَّ على الأَثْمرافِ يقسم أَمرَه ... أَينظر جُنحَ الليل أَم يستثيرها؟

فأَزْمَع من عَيْن الأَراكة موْردًا ... له غارَةٌ لفَّاءُ صاف غديرها

فصاحَ بقبّ كالمَقَالِى يَشُلُّها ... كما شَلَّ أَجْمالَ المُصَلِّى أَجيرها [1]

ولولا خشية الإطالة لعرضنا بالدرس لنماذج أخرى ، لاتقل روعة عما ذكرنا، وخاصة كلمته « الزائية » ، التى يتناول فى ثمانية وعشرين بيتاً منها[2] وصف الحمر الوحشية. مصوراً كثيراً من المعانى التى قدمناها. بالإضافة إلى وصف دقيق رائع

---

(١) الديوان : ٧/٢٢ – ٢٨ ما عدا البيت : ٢٣ .

(٢) انظر الديوان : ٨/٥ – ١٨ ، ومن : ٤١ – ٥٦ .

لرحلات هذه الحمر فى الصحراء ، يضرّم خطاها ظمأ إلى الماء ، أو هرب من مطاردة الصياد .

ووصف الشماخ للحمر الوحشية — بعامة — يبدو فيه وكأنما أصبحت هذه الحيوانات جزءاً من نفسه ، فهو لا يكتفى بوصف ملامحها من الخارج — إن صح هذا التعبير — بل ينفذ من خلال مظاهرها وحركاتها الحسية إلى داخل نفسها . فيتخذ منها مرآة يعكس عليها الكثير من مشاعره وتجاربه النفسية والعملية . كرحلاتها فى الصحراء التى تحكى رحلاته فيها ، وقد غدا وصفه بذلك أشبه بالأقصوصة الخاطفة التى تثير الانتباه بما حوت من حركات وحوادث ، كما تثيره بما فيها من متابعة ما يدور فى نفس هذا الحيوان من نزعات وعواطف .

وقبل أن نترك موضوع الحمر الوحشية ، يجدر بنا أن نعرّج على شعره فى وصف الصياد ، الذى كثيراً ما عرض لها حائلا بينها وبين الماء ، فأصاب منها حيناً ، ونجت من نصاله أو كلابه فى أغلب الأحيان .

وصياد الشماخ كان مغرماً — مثله — بالحمر فيما يبدو ؛ إذ لم يعرض لغيرها إلا فى موضع واحد[1] من شعره ، حيث وضعه — عرضاً — فى طريق ظبية وولدها .

فهذا صياد من بنى عامر قد تلطخت ثيابه بدماء الصيد ؛ فهى دنسة متسخة ، يعول بنات خمساً جياعاً ، يدرن حوله ، يسألنه الزاد ، وقد نفد الزاد ، فخرج يلتمس لنفسه ولهن الرزق ، وهو يمنى نفسه بصيد يلقمه هذه الأفواه المفتوحة ، ويشبع به تلك البطون الجائعة ، وليس له من المتاع إلا عدة صيده ، وهى عدة خفيفة . لا تعدو قوساً شديدة ، ونصالا مرهفة محدّدة ، بها آثار من دماء صيد سابق ، فإذا كان عند الماء انبطح على الأرض يخفى شخصه ويضائله . خلف صخور رقيقة متراصة ، ولم يلبث أن أقبلت جماعة من الأتن الوحشية ظمأى يقودها عيرها ، فأمهلهن حتى دخلن فى الماء ، وإذ ذاك قصد إلى إحداهن فسدد إليها أحد نصاله يؤمّ به منها مقتلا ، ولكنه أخطأ الهدف ، وأحست الجماعة بما يتهددها فانفلتت تجد فى الهرب ، وقد أثارت قوائمها بسرعتها الغبار من حولها . فأخفاها عن الأنظار ،

---

(١) الديوان : ١٣/١٣ — ٢٣ .

وهو ينظر إليها مولية فى حسرة ، ينعى ضياع الفرصة ، وسوء الحظ ، وخيبة الأمل .

وهو يعرض هذه الصور الزاخرة بالحياة والحركة ، فى إيجاز وبساطة يعبران عن القصد . فيقول :

فوافقهنّ أطلَسُ عامِرِيٌّ لَطَـا بصفائح مُتساندات
أبو خمْسٍ يطنّ به صِغارٍ غدا منهنّ ليس بِذِى بَتَاتِ
مُخِفًّا غيرَ أَسْهُمه وقوسٍ يَلوحُ بها دِماءُ الهاديَات
فسدَّد إذْ شَرَعْن لهن نَصْلاً يَؤُمّ به مقاتِل باديات
فلهَّف أُمَّـه لما تولَّتْ وعَضَّ على أناملَ خائبات (١)

وقد سبقه أوس بن حجر إلى معنى البيت الأخير . فقال فى هذه المناسبة :

فعضَّ بإبهام اليمين ندامةً ولهَّفَ سِرًّا أَمَّه وهو لاهِفُ (٢)

وهو يعرض علينا صورة موجزة أخرى ، لصياد آخر ، رقيق الحال أيضاً ، فثيابه ممزقة ، أما عدة صيده فكلاب دربها على الصيد ، وأغراها به ، وجعل لها أطواقاً من جلود الصيد ، وهذه الكلاب جياع ضامرة ، قد دقت خصورها ، ولحقت بطونها بأصلابها ، واسعة الأشداق ، تسمع لأشداقها صوتاً أثناء عدوها .

وقد غدا هذا الصياد بكلابه يحدوه الأمل فى أن تصيب له كلابه شيئاً من الصيد ، ومن ثم فهو يعلو بها المرتفعات مبكراً يبحث عن فريسة . وذلك قوله بعد حديث عن الظبية وولدها :

فتوجسا فى الصبح رِكْزَ مُكَلِّبٍ أو جاوزاه فأَشْفقا إشفاقا
سَمِلِ الثياب له ضِوارٍ ضُمَّرٍ مَحْبُوَّة من قِدِّه أطواقا
فغدا بهـا قُبًّا وفى أشداقِها سعَةٌ يُجلْجل حُضْرُها الأَشداقا
يرجو ويأمل أن تصيد ضِرَاؤُه يُوفِى النِّجَاءَ يبادرُ الإشراقا (٣)

(١) الديوان : ١/١٦ – ٢١ .
(٢) ديوان أوس : ص ٧٢ .
(٣) الديوان : ١٣/٢٠ – ٢٣ .

ولم يخرج الشماخ فى نماذجه الأخرى، التى وصف فيها الصياد عن هذه المعانى التى عرضناها — غالباً — يقلبها ويعيد تصويرها فى صور مختلفة .

فيقول فى وصف فقره وعدته ومهارته فى الصيد :

قليلَ التِّلادِ غير قوس وأَسْهم كأَن الذى يَرْمِى من الوحش تارِزُ
مُطِلاً بزُرْقٍ ما يُداوَى رَمِيُّها وصفراءَ من نَبْع عليها الجَلَائزُ (١)

ويقول فى وصف عدته خاصة ، بعد أن ذكر الحمر الوحشية واقترابها من الماء :

بحضرته رامٍ أَعدَّ سَلَاجِماً وبالكف طوعُ المِرْكَضَيْن كَتُومُ (٢)

ويقول بعد أن ذكر الأتُن :

تواصى بها العِكْراش فى كل مَشْرَبٍ وكعبُ بن سعد بالجديل المضَرَّج
بزُرْقِ النواحى مرهَفَاتٍ كأَنَّما توقُّدها فى الصخر نيران عَرْفَج (٣)

ويقول فى تحسر الصياد ، وما أحس به من خيبة الأمل حين أخطأ الصيد :

وصدَّت صدوداً عن ذَرِيعةِ عَثْلَبٍ ولابْنَىْ عِيَاذٍ فى الصدور حَزَائزُ (٤)

ويصف قُتَر الصائد حول الماء فيقول :

عليها الدُّجَى مُسْتَنْشآت كأَنها هوادِجُ مشدودٌ عليها الجَزَاجِزُ (٥)

وهذه المعانى فى جملتها مطروقة، تداولها من قبله من تعرض لهذا الموضوع من شعراء الجاهلية ، حتى غدت تقليداً يحذو فيه اللاحق حذو السابق ، وإنما يختلف عرض هذه المعانى ، وتصويرها من شاعر إلى آخر ، كل حسب طريقته وأسلوبه :

وبعد : فهذه لوحات من فن الشماخ فى وصف الحمر الوحشية ، وما يتبعها، عرضنا لها بالتحليل ، وفيما ذكرناه منها دليل على ما لم نذكر ، والآن إلى ناقة الشماخ .

---

(١) الديوان : ٨/١٩ — ٢٠ .
(٢) الديوان : ١٦/١٥ .
(٣) الديوان : ٢/٥٧ — ٥٨ .
(٤) الديوان : ٨/١٦ .
(٥) الديوان : ٨/١٢ .

وصف الناقة :

وصف الشماخ الناقة وذكر الإبل، فى (١٤٥) بيتاً موزعة فى قصائد الديوان : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، وفى ملحق الديوان فى القطعتين : ٤ ، ٤٠ . وتحدث عن الإبل فى الأراجيز : ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ .

ونسبة هذه الأبيات إلى مجموع شعره فى الوصف ٣٦٪ تقريباً ، فموضوع الناقة هو ثانى موضوعات وصفه من حيث عدد أبيات شعره فيه .

وإذا كان الشماخ قد أكثر من القول فى وصف الناقة ، إلا أن وصفه لها يختلف عن وصفه للحمر من وجهة هامة ؛ إذ يفتقد القارئ لشعره فيها تلك الفلذات الوجدانية . التى صورها فى وصفه للحمر ، فجاء وصفه ظاهرياً يجسمه فى صور وتشابيه مما تقع عليه حواسه فى بيئته .

وموضوع الناقة يكاد لا يخلو منه وصف فى الشعر الجاهلى ؛ ومن ثم نجد أكثرهم يجيد وصفها ؛ لأنها مراكبهم كما يقول ابن رشيق[1] .

أما الشماخ ، فقد طالت صحبته لناقته ، وملازمته إياها ، فهو يطوف بها أنحاء الصحراء ليلا ونهاراً ، تنيخ بإناخته ، وتنهض إلى غايته ، وتوسده ذراعها فى الفلاة إن رامت عينه الغمض ، وتستجيب لما يريد من ضروب سيرها ؛ ولذا كثر نظره إليها ، وأطال فى وصفها ، وأكسب صورتها نشاطاً وحركة ، وأبرز معالم جسمها ، كل ذلك فى دقة واستيعاب .

وهاك نموذجاً من وصف الشماخ لناقته ، وهو من أكثر نماذجه فى وصفها تفصيلا ، وأدلها على ما ألمحنا إليه من مذهبه فى هذا الوصف .

يقول الشماخ :

١ ـ ولما رأيت الأمر عَرْشَ هَوِيَّة ... تسلَّيْت حاجات الفؤاد بشَمَّرا

٢ ـ فقربت مُبْراةً تخالُ ضلوعَها ... من الماسِخيَّاتِ القِسِىِّ المُوَتَّرا

٣ ـ جُمالِيَّةٌ لو يُجعَلُ السيفُ غَرْضَها ... ـ على حدِّه ـ لاستكبرتْ أن تَضَوَّرا

---

(١) العمدة : ٢/٢٢٧ .

٤ ـ ولا عيبَ فى مكْرُوهِهَا غير أنه تبدَّلَ جوْناً بعد ما كان أزْهَرا
٥ ـ كأَن ذراعيْها ذِراعا مُدِلَّةٍ بُعَيْد السِّبَاب حاولْت أن تعذَّرا
٦ ـ ممجَّدةِ الأَعراق قال ابن ضَمَّرةٍ عليها كلاماً جار فيه وأَهجرا

وبعد أن يستطرد إلى وصف هذه المرأة المدلة فى أبيات سبعة يعود إلى الناقة، فيقول :

٧ ـ كأَن ابن آوى مُوثَق تحت غَرْضها إذا هو لم يَكْلِم بنابيْه ظَفَّرا
٨ ـ كأَن بذِفْراها مناديلَ قارَفَتْ أَكُفَّ رجالٍ يعصرون الصَّنَوْبرا
٩ ـ وتقسم طرْفَ العين شَطْرًا أَمامها وشَطْرًا تراه خشية السوط أَخْزَرا
١٠ ـ لها مَنْسِمٌ مثلُ المَحَارةِ خُفُّه كأَن الحَصَى من خلفه خَذْفُ أَعْسَرا
١١ ـ إذا وردتْ ماء هُدُوءًا جِمَامُه أَصَاتَ سَدِيسَاهَا به فَتَشَوَّرا
١٢ ـ وقد أَنعلتْها الشمس ظِلاًّ كأَنه قَلوصُ حُبارَى زِفُّها قد تمَوَّرا
١٣ ـ سرتْ من أَعالى رَحْرَحان فأَصبحت بِفَيْدَ وباقى ليلها ما تحسَّرا
١٤ ـ إذا قطعت قُفًّا كُمَيْتاً بدا لها سَمَارة قفٌّ بين وَرْدٍ وأَشقرا
١٥ ـ وراحت رَوَاحاً من زَرُودَ فنازعتْ زُبَالَة جلباباً من الليل أَخضرا
١٦ ـ فأَضحت بصحراء البُسَيْطة عاصفاً تولى الحصى سُمْرَ العُجَايات مُجْمَرا
١٧ ـ وكادت على ذات التَّنَانير ترتمى بها القورُ من حادٍ حدا ثم بَرْبَرَا
١٨ ـ وأَضحت على ماء العُذَيْب وعينها كوكب الصَّفَا جِلْسِيُّها قد تغوَّرا
١٩ ـ فلما دنتْ للبطن عاجتْ جِرانَها إلى حَارِكٍ تنْمِى به غَيْرُ أَدْبَرا
٢٠ ـ وقد أَلبستْ أَعلى البُرَيْديْن غُرَّةً من الشمس إلباس الفتاة الحَزَوَّرا
٢١ ـ وأَعرض من خَفَّانَ أُجْمٌ يزينه شماريخ بَاهَا بانياهُ المشقَّرا
٢٢ ـ فروَّحها الرجَّاف خوصاءَ تحتذى على اليمِّ بَارِىّ العراق المُضَفَّرا
٢٣ ـ تَحِنُّ على شَطِّ الفراتِ وقد بَدَا سُهَيْلٌ لها من دونه سِرْوُ حِمْيَرا

٢٤ ـ ففاءت إلى قوم تريح رعاؤهم عليها ابنَ عُرْس والإوَزَّ المُكَفَّرا
٢٥ ـ إذا ناهبتْ وُرْدَ البراذين حظَّها من القَتِّ لم يَنْظِرْنها أن تحدَّرا
٢٦ ـ كأن على أنيابها حين تنتحى صِياحَ الدَّجاج غُدْوة حين بشَّرا
٢٧ ـ إذا ارْتَدَفَاها بعد طول هِبَابها أَبَسَّا بِهَا من خشيةٍ ثم قَرْقَرَا
٢٨ ـ وقد لبستْ عند الإلَهةِ ساطِعاً من الفَجْر لما صاح بالليل بَقَّرا
٢٩ ـ فلما تدلَّتْ من أُجَارِدَ أَرْقَلَتْ وجاءت بماءٍ كالعَنِيَّة أَصفرا
٣٠ ـ فكل بَعيرٍ أَحسنَ الناسُ نعته وآخر لم يُنعتْ فِداءٌ لضمْزَرا[1]

يتحدث الشماخ فى هذه الأبيات عن ناقته ، فيصف أجزاء من جسمها ؛ ولون عرقها ، وسرعتها وخفة حركتها ، ورحلة طويلة قطعها عليها فى الصحراء ، واصفاً نشاطها خلال هذه الرحلة ، على وعورة الطريق ، وصعوبة المسالك ، واتصال السير ، معرجاً على وصف مشاهد بعض الأماكن التى مر بها ، وهو فى وصفه لهذه الرحلة ، كأنما يريد أن يدلنا على خبرته بالصحراء ، ومعالمها ومسالكها ، ولا ينسى أخيراً . أن يسجل إعجابه بها ، وأن يفضلها على كل ما عداها من الإبل .

ولنعد إلى تحليل الأبيات بشيء من التفصيل :

يبدأ الشاعر ببيان منزلة ناقته عنده ، فهى ملاذه إذا أظله الهم ، يسريه عنه بالسفر عليها ، وقد ردد هذا المعنى فى معارض مختلفة من شعره فى الناقة .

فهو يقول فى معرض حديثه عن صاحبته ، التى يأبى فؤاده أن يسلو ذكراها مع بخلها بالوصل عليه ، مما أهمه وأضجره :

هل تسلينَّك عنها اليوم إذ شَحَطَتْ عَيْرانةٌ ذات إرقال وإعناق[2]

ويقول فى معرض آخر :

فسل الهم عنك بذات لوْثٍ عُذافِرَةٍ كمِطْرَقة القُيُون[3]

---

(١) الديوان : ٥/١١ ـ ١٦ ومن : ٢٢ ـ ٤٥ .
(٢) الديوان : ١٢/٤ .
(٣) الديوان : ١٨/٧ .

ويقول :

سَلِّ الهمومَ التى باتَتْ مُؤَرِّقة بَجَسْرَةٍ كعلاةِ القَيْنِ شِمْلَال [١]

وقريب من ذلك قوله :

على مثلها أَقضى الهمومَ إذا اعترت إذا جاش همُّ النفس منها ضميرُها [٢]

ثم يصف ضلوعها بالقوة والانحناء والطول ، ويراها فى ذلك تشبه أجود القسىّ وأكملها ، قسى ماسخة ، ويكرر هذا المعنى فى قوله :

عنْسٌ مُذَكَّرة كأَن ضلوعَها أُطرٌ حناها الماسخىُّ بيثرب [٣]

وفى موضع آخر يصف ضلوعها بأنها متباعدة من عظم جنبيها . فيقول :

وخَرْقٍ قد جعلت به وسادى يَدَىْ وجْناءَ مُجْفَرةِ الضُّلوع [٤]

وهى وثيقة الأعضاء ، تشبه الجمل فى خَلقها وشدتها وعِظَمِها ، قوية الاحتمال .

ويؤكد شبهها بالجمل ، وقوة احتمالها الذى تفوق فيه غيرها من كرام الإبل فى غير موضع من شعره ، فيقول :

جُمَالِيَّةٌ فى عِطْفِها صَيْعريَّةٌ إذا البازلُ الوجْنَاءُ أُرْدِف كورُهَا [٥]

ويقول :

جُمَالِيَّةٌ فى مشيها عجْرَفِيَّةٌ إذا العِرْمِسُ الوجناءُ طال اختِفَاضها [٦]

ومع أنه وصفها بقوة الاحتمال ، فى قوله فى البيت الثالث من الأبيات السابقة : « لو يجعل السيف غرضها . . . » إلخ فهو يذكر فى موضع آخر أنها تصيح وترغو إذا لزقت أنساع الرحل فى بطنها ، ودخلت فيه ، وذلك قوله :

إذا غَاطَتِ الأَنْساعُ فيها تَزَغَّمتْ عُذَافرة يُوفى الجديل انتهاضها [٧]

---

(١) ملحق الديوان : ١/٤٠ .
(٢) الديوان : ٣٠/٧ .
(٣) ملحق الديوان : ٣/٤ .
(٤) الديوان : ١٥/١٠ .
(٥) الديوان : ١٨/٧ .
(٦) الديوان : ٠٦/٩ .
(٧) الديوان : ١٠/٩ .

أما عرقها فقد اسود من شدة ما أتعبها (كرر هذا المعنى فى البيت الثامن من الأبيات السابقة) وفى موضع آخر يصف عرقها الذى يسيل من خلف أذنيها. فيشبهه لسواده بالقطران ، وذلك قوله :

عُذافِرةٌ كأَن بذفْرَيَيْها كُحيْلٌ بَضَّ من هرِعٍ هَمُوع[1]

ثم يصف حركة يديها أثناء السير ، فيذكر أنها تحركهما فى سهولة وتتابع سريع ، ولكى يبرز صورة هذه الحركة يعرض علينا صورة امرأة مدلة بجمالها. وحسن ذراعيها ومنصبها ، سابَّت فأقبلت — منفعلة — تعتذر ، وقد قال عليها ابن ضرّتها كلاماً أفحش فيه، فهى تشير بيديها ترفعهما وتخفضهما فى تتابع وسرعة. تعتذر وتحلف ، وتنضح عن نفسها ، وكأنه يقول : أرأيتم حركة ذراعى هذه المرأة ؟ هكذا حركة ذراعى ناقتى وهى تسير مسرعة .

ويعيد تصوير هذه الحركة فى صورة أخرى، فيقول :

كأَن أَوْبَ يديْها حين أَعجلها أَوْبُ المِرَاحِ وقد هَمُّوا بِترْحال
مقْط. الكرِينَ على مكْنوسةٍ زَلَقٍ فى ظهر حنَّانةٍ النِّيريْن مِعْوال[2]

وفى غير هذين الموضعين يشبه هذه الحركة بحركة ذراعى امرأة متمادية فى الخصومة، فهى لا تفتأ تحركهما [3] .

ويعرض صورة أخرى لهذه الحركة . فيشبهها فى انصبابها. وسرعة تتابعها. بمطر ينصب من سحاب غزير المطر ، فيقول :

تَخْدِى يداها ورجلاها على شَمَرَكٍ سَحٍّ النَّجَاءِ به من بارِقٍ بَاق[4]

وناقته تكاد لا تستقر من وفرة نشاطها ، فهى كثيرة التفزع ، وكأنما بيَّت ابن آوى تحت حزام رحلها ، فهو يجرحها بنابيه ، أو يخدشها بأظفاره .

ولنشاطها مظاهر متعددة فى شعره الآخر ،منها سرعتها الفائقة فى الصحراء ، حتى لتكاد تطير إذا رأت السوط فى يده ، وذلك قوله :

---

(١) الديوان : ١٠/١٦ .
(٢) ملحق الديوان : ٤٠/٣-٤ .
(٣) انظر البيت : ١٦ من القصيدة : ١٧ من الديوان .
(٤) الديوان : ١٢/١١ .

مَرُوح تَغْتَلِي بالبيد حرفٌ تكادُ تطير من رأى القَطيع [١]

ولخوفها من هذا السوط فهى دائماً تلاحظه بمُؤْخر عينها، بينما تراقب الطريق بباقيها ، كما نرى ذلك فى البيت التاسع من هذه الأبيات التى نحللها .

ومنها : استمرار هذا النشاط بعد طول السير ، حتى إن راكبيها ليحتاجان إلى تسكينها بالزجر والقرقرة ؛ خشية أن تلقى بهما على الأرض (فى البيت السابع والعشرين)

وقريب منه قوله :

أَجدَّتْ هِبَاباً عن هِبَابٍ وسامَحتْ قُوَى نِسْعَتَيْها بعد طول أَذا هما [٢]

وفى تفزعها من نشاطها يقول :

كادت تساقطنى والرَّحْلَ أن نطقتْ حمامةٌ فدعتْ ساقاً على ساق [٣]

كذلك يفزعها صوت الحادى (فى البيت السابع عشر)

ولكنه يعود فيشوِّه هذه الصورة لنشاطها فى بعض شعره ، فيذكر أنه يحتاج لضربها بالسوط كى تسرع :

وأَدْمَاءَ حُرْجُوجٍ تعالَلْت مرهناً بسوْطِىَ فارمَدَّتْ فقلت لها : عَجِ [٤]

أو تخويفها إن فتر نشاطها :

وإن فترتْ بعد الهِبَابِ ذعرتُها بأَسْمَرَ شَخْت ذابل الصَّدْرِ مُدْرَجِ [٥]

أو بالمنسأة :

وعنْسٍ كأَلْواح الإرَان نسأتها إذا قيل للمشبوبتين : هُمَا هُمَا [٦]

وقوله :

ودَوِّيَّةٍ تَيْهَاءَ قَفْرٍ مَرَادُها مَرُوت يكل العيسَ فيها ارتكاضها

إذا ما حرابىُّ الظهيرة لم تَقِلْ نسأْت بها صَعْراءَ طال امتعاضها [٧]

---

(١) الديوان : ١٨/١٠ .
(٢) الديوان : ١٩/١٧ .
(٣) الديوان : ١٢/١٢ .
(٤) الديوان : ٣٢/٢ .
(٥) نفس القصيدة : ٣٤ .
(٦) الديوان : ١٣/١٧ .
(٧) الديوان : ٤/٩ — ٥ .

ثم يصف منسمها . فيشبهه بالمحارة ، وأخفافها قوية ، فهى لشدة وقعها أثناء سرعتها تفتت الحصى ، وتجعله يتطاير خلفها فى غير نظام . كأنما تقذف به كف أعسر .

ويعود إلى وصفها بالسرعة ، وشدة السير ، وتطاير الحصى خلفها فى موضع آخر من نفس الأبيات (البيت : ١٦) .

ويكرر هذا المعنى فى موضع آخر . مشبهاً هذا الحصى المتطاير بالنوى الذى يرتفع بسرعة متفرقاً من تحت المرضخة فيقول :

كأَن حصى المعْزَاء بين فروجها نَوَادِى نَوَى رُضْخٍ أُشِبَّ ارفِضَاضُها [١]

وهى ناقة أنُوف ، تعاف الشرب من المياه الراكدة المتغيرة ، وقد اعتادت السير فى كل الأوقات ، لا تتأثر سرعتها بمكان وإن صعب ، ولا بوقت وإن اشتد .

وفى سرعتها وقت اشتداد الحر يقول أيضاً :

خبُوبٌ وإن صامتْ عليها وَدِيقَة من الحرِّ إن يُطبخْ بها النِّىُّ ينضج [٢]

ويقول :

لَجُوجٌ إذا ما الآل آضَ كأَنه أعاصيرُ زرَّاعٍ بِنَخْلٍ يُثيرها [٣]

وفى سرعتها فى البكور يقول أيضاً :

ذعرت بها سربَ القطا وهْوَ هاجدٌ وعيْن الفلاةِ لم تَبعَّثْ رياضها [٤]

ويقول :

جُلْذِيّةٌ بقتود الرحل ناجِيَة إذا النجومُ تدلَّتْ بعد إخفاق [٥]

وفى سرعتها فى الطريق الصعب المسلك يقول :

وإن رمَيْتَ بها فى طَامِسٍ دأَبتْ إذا ترقرق آلٌ بعد رَقْراق [٦]

---

(١) الديوان : ٩/ ٨ .
(٢) البيت الزائد عقب شرح البيت : ٣٥ فى هامش الديوان .
(٣) الديوان : ٧/ ٢١ .
(٤) الديوان : ٩/ ٧ .
(٥) الديوان : ١٢/ ٦ .
(٦) نفس القصيدة : ٧ .

وهى لسرعتها تقطع المسافات الطويلة فى زمن قصير ، وعيناها من شدة التعب غائرتان فى كن يسترهما أشبه ما تكون بنقر فى الصخر ، يجتمع فيها الماء .

وفى هذه الصورة لعينيها يقول أيضاً :

وإن شرك الطريق توسَّمَتْه بِخَوْصاوَيْن فى لُحْجٍ كَنِين (١)

وهو شديد الإعجاب بعينيها النقيتين الصافيتين ، فهو يشبههما بمرآتين من ذهب ملساوين :

ترى الغيوبَ بِمِرْآتَيْن من ذهبٍ صَلْتَيْن ضاحيهما بالشمس مصقول (٢)

وظهرها قوى سليم من الدَّبَر ، أما صريف أنيابها فيشبه صوت الدجاج وقت الصبح ، أو يشبه صوت طائر يقال له : « الأخطب » كما فى قوله :

أُجُدٌ كأَن صريفها بِسَدِيسها فى البيد صارخةٌ صرير الأَخْطَب (٣)

ثم ينهى الأبيات بالإعراب عن شدة إعجابه بها ، وتفضيلها على غيرها من كرام الإبل .

وهو لا يفتأ يردد إعجابه بها وتفوقها على غيرها فى عدة مواضع من شعره ، من مثل قوله بعد أن تحدث عن ارتحال صاحبته وبعد مزارها :

فإن تك قد شطَّتْ وشطَّ مزارُها وجذَّم حَبْلَ الوصل منها أَمِيرُها

فما وصلها إلا على ذات مِرَّةٍ يُقَطِّع أَعناق النواجى ضَرِيرُها (٤)

بل هى تفضل غيرها فى الخلقة أيضاً ، كما فى قوله :

وقد تلاقى بى الحاجاتِ دوْسَرَةٌ فى خَلْقِها عن بنات الفحل تفضيل (٥)

على أن هذه الأبيات لا تنهض وحدها لإبراز صورة ناقة الشماخ كاملة ؛ فقد كان الشماخ معنيًّا بوصف ناقته ؛ ولذلك نجده يعرض لوصفها فى معظم قصائد ومقطوعات شعره ، وقد أشرنا إلى ما تكرر فى أشعاره الأخرى من الأوصاف

---

(١) الديوان : ٢١/١٨ .
(٢) الديوان : ٨/١٤ .
(٣) ملحق الديوان : ٢/٤ .
(٤) الديوان : ١٦/٧ — ١٧ .
(٥) الديوان : ٤/١٤ .

التى تضمنتها الأبيات السابقة، التى تصدينا لتحليلها ، ونرى لزاماً علينا أن نستكمل الصورة ، بذكر ما لم يرد فى هذه الأبيات من أوصافها التى عرض لها فى غير هذه الأبيات من أشعاره، من ذلك قوله :

١ ـ غَلْبَاءُ رَكباءُ عُلْكُوم مُذَكَّرة ... لَدَفِّها صَفْصَفٌ قدَّامُها مِيلُ

٢ ـ ما إن يزال لها شَأْوٌ يُقَوِّمها ... مُجرّب مثل طوطِ العِرْق مجدول

٣ ـ تَمَّ لها ناهِض فى صدرها تَلِعٌ ... وحارِكٌ فى قناة الصُّلب معدول

٤ ـ كأنما فات لَحْيَيْها ومَذْبحِها ... مُشَرْجِعٌ من عَلاَة القَيْن مَمْطول

٥ ـ ترمى الغُيوب بمرآتين من ذهب ... صلْتَيْنَ ضاحِيهما بالشمس مصقول

٦ ـ وحرَّتَيْن هِجَان ليس بينهما ... إذا هما اشْتَأَتَا للسَّمع تَمهيل

٧ ـ فى جانِبَىْ دُرة زهراءَ جاءَ بها ... مُحمْلَجٌ من رجال الهند مجدول

٨ ـ على رِجاميْن مِن خُطَّاف ماتِحةٍ ... يهْدى صدورهما أُرْقٌ مراقيل

٩ ـ وجلدُها من أَطوم ما يُوَيِّسُه ... طِلْحٌ كضاحية الصَّيْداء مهزول

١٠ ـ تذبُّ ضَيْفاً من الشَّعْراءِ منزله ... منها لَبانٌ وأَقْرَابٌ زهاليل

١١ ـ أَو طَىٌّ ماتحةٍ فى جِرْمها حشَفٌ ... ومُنْثَنًى من شَوِىِّ الجِلْد ممْلول

١٢ ـ تَهوى بها مُكْرَباتٌ فى مَرافقها ... فُتْلٌ صِيابٌ مياسِير معاجيل

١٣ ـ يدا مهاة ورجلا خاضِبٍ سَنِقٍ ... كأَنه من جَنَاهُ الشَّرْى مخْلُول[1]

فهى غليظة الرقبة ، شديدة صلبة ، جنبها أملس مستو ، وعنقها طويل ، وزمامها طويل مثنى شديد الفتل مدمج ، وصدرها مرتفع أملس ، وحاركها معتدل السمنة ، ورأسها ضخم صلب كسندان الحداد ، وأذناها حادتا السمع ، ووجهها كالدرة النيرة الكريمة الأصيلة، وجلدها قوى شديد الملاسة كجلد السلحفاة البحرية ؛ لسمنها وضخامتها، فلا يستطيع القراد الجائع المهزول أن يلتزق به ، مع شدة حرصه على ذلك ، وخاصرتاها ملساوان ، وضرعها جاف متقبض كالقربة اليابسة ، وجلدها

(١) الديوان : ١٤/٥ – ١٦ مع بيت زائد فى الهامش عقب شرح البيت الخامس .

متغضن ، كأنه مشوى لكثرة تعرضه لحرارة الشمس ، ويداها مفتولتان فتلاشديداً ، شديدتا الاتصال بمرافقها ، خفيفتان تلاينان فى مشيهما ، فهما تشبهان يدى البقرة الوحشية ، كما أن رجليها تشبهان رجلى الظليم .

فانظر إلى هذا الوصف التقريرى ، الذى يبدو فيه الشاعر ، وكأنه ينحت تمثالا لناقة مثالية الخلق ، حتى ليخيل للمرء أن الشاعر لا يصف ناقته ، بقدر ما يصف تلك الناقة المثالية ، التى تحددت معالمها وصفاتها فى شعر أسلافه من الشعراء الجاهليين .

والحق أن نزعة التقليد فى وصف الشماخ لناقته واضحة جلية ، حتى فى كثير من الصور والتشابيه . ولنترك هذا الآن فسيأتى له مزيد تفصيل ، ولنعد إلى استكمال صورة ناقته .

يقول الشماخ :

وأَغْبَرَ ورَّاد الثَّنايا كأَنه ... إذا اشْتَقَّ فى جوْز الفلاة فايق
علوت بهوجاء النَّجاءِ شِمِلَّةٍ ... بِها من عُلوب النِّسعَتيْن طروق
خَطور بريان العسِيب كأَنه ... إهان عُذوق فوقهن عُذُوق
تَلُطُّ به الحاذيْن طوْرًا وتارةً ... له خلف أَثوابِ الرَّديف بُروق
مؤتَّرة الأَنْسَاء مُعْوَجةِ الشَّوَى ... سفينة بَرٍّ بالنَّجاء دَفوق (١)

فهى فى هذه الأبيات سريعة خفيفة مشمرة ، قد تركت النسعتان على جنبيها آثاراً لكثرة ما يشد عليها الرحل ، وذنبها قوى غليظ ضخم ، كثيف الوبر يشبه عذوق نخل بشماريخها ، وضعت بعضها فوق بعض ، وهى ترفعه مرة تضرب به حاذيها ، وأخرى تصل به إلى ما خلف الرديف فيلمع ، وأنساؤها موثقة شديدة ، وقوائمها معوجة ، ضخمة عظيمة الخلق كالسفينة ، تتدفق فى سيرها .

ويقول :

إذا عيجَ منها بالجَديل ثَنَتْ له ... جِرَاناً كخوط الخَيْزران المعوَّج (٢)

(١) الديوان : ١١/١١ — ١٥ .
(٢) الديوان : ٣٣/٢ .

ويقول :

إذا بركت على علياءَ ألقتْ عَسيبَ جِرَانها كعصا الهَجين [١]

فهو هنا يستكمل وصف عنقها الذى وصفه بالطول فيما سبق : فيذكر أنه أملس لدن فى قوة، إذا عطف زمامها حنته فأشبه قضيب الخيزران المعوّج ، وإذا بركت ومدته على الأرض أشبه عصا الراعى فى طولها وخفتها، أما كِرْكِرَتُها فصلبة صلابة الرحى :

فنعم المُعْتَرى رحلتْ إليه رحى حَيْزومها كَرَحى الطَّحين [٢]

وأما سنامها فيكاد لا يشير إليه بوصف. إلا فى معرض إيجاب الحقوق على الممدوح. حيث يقول فى مدحه لعرابة :

إليكَ بعثت راحلتى تَشَكَّى كلوماً بَعد مَقْحَدها السَّمين [٣]

* * *

بقى أن نعرض شيئاً من وصفه للإبل ، وهو فى معظمه ، وصف لناقته ضمن قطيع من الإبل. بعد أن وصفها منفردة . فهو يقول :

وحَرْفٍ قد بعثت على وَجَاهَا تبارى أَيْنُقاً مُتَواترات
تخالُ ظلالَهُنَّ إذا استقلَّتْ بأَرْحُلنـــا سَبَائبَ باليات
لهن بكل منزلةٍ رَذايَا تُركْنَ بها سَواهِمَ لا غبَات
ترى كيرَانَ ما حَسَرُوا إذا ما أَراحُوا خلفهن مردَّفات
ترى الطيْرَ العِتَاقَ تَنوش منها عيوناً قد ظهرْن وغائرات
كأَن أَنينَهُنَّ بكل سَهْبٍ إذا ارتحلتْ تَجَاوُبُ نائحات [٤]

فهو يصف ناقته وقطيعاً من الإبل تباريها — على ما بها من ضمور وعلة — أثناء رحلة شاقة . فيصور ما نال هذه الأينق من التعب . حتى سقط بعضها أثناء

(١) الديوان : ١١/١٨ .
(٢) القصيدة السابقة : ١٠ .
(٣) القصيدة السابقة : ٩ .
(٤) الديوان : ١/١ — ١ — ٦ .

الطريق عيثاً وهزالا ، فتركها الركب . وأردفت كيرانها خلف الباقيات ، ثم يصف ما حدث لهذه الرذايا بعد أن خلفها الركب . من وقوع الطيور الجارحة عليها تنوش عيونها ، وانتهى إلى وصف أنين هذه الإبل المتعبة فى الفلاة . مشبهاً له بتجاوب نائحات على ميت ، وهو يرمى من وراء هذا كله إلى أن ناقته — على علتها — أقوى وأشد احتمالا وأكثر رياضة على السير من هذه الأينق ؛ إذ لم يصبها ما أصابهن ، ولم يبد عليها ما بدا عليهن من مظاهر التعب والإعياء ، بدليل قوله عقب هذه الأبيات :

كأَن قتودَ رحْلى فوق جأْبٍ صَنيعَ الجسم من عَهْد الفلاة[1]

إذ يشبهها بهذا الحمار الغليظ القوى .

وهاك نموذجاً آخر ، يقول الشماخ :

هل تبْلغَنِّى ديارَ الحىِّ ذِعْلبَةٌ قَوْدَاءُ فى نجُبٍ أَمثالها قود
يهْوين أَزْفلَةً شتَّى وهنَّ معاً بفِتْيَةٍ كالنَّشاوَى أَدْلَجُوا غيدا
خوص العيون تَبَارى فى أَزِمَّتها إذا تَقَصَّدْن من حَرِّ الصَّياخيد
وكلهن يُبَارى ثِنْىَ مُطَّرِدٍ كَحيَّة الطَّوْد ولَّى غير مطرود...[2]

فهل تراه خرج فى وصفه لهذه الإبل — ومن بينها ناقته — فى سرعتها ، وأعناقها ، وعيونها ، وأزمتها ، عما ذكره فى وصفه لناقته منفردة ؟

فطول الأعناق والسرعة ، وغؤُور العينين ، والنشاط حتى فى أشد أوقات الحر ، والزمام الطويل المثنى الذى يشبهه هنا أيضاً بحية الجبل ، كل ذلك قد مر بنا فى وصفه لناقته .

واستمع إليه يشبه الإبل — وفيها ناقته — وقد ضمرت وانحنت من الظمأ ، ومواصلة السير . مع شدتها وصلابتها بالقسى . التى نحتها وسواها القواس من قضب النبع — فى رجز له :

كأَنها وقد بَرَاها الإخماسْ

---

(١) نفس القصيدة السابقة : ٧ . (٢) الديوان : ٤/٥ — ٨ .

ودَلَجُ الليل وهادٍ قيَّاسْ
ومَرَجَ الضَّفْرْ ومَاجَ الأَحْلاَسْ
شرائجُ النَّبْعِ براها القوَّاسْ (١)

ثم استمع إليه يصف إبلا — ومعها ناقته أيضاً — بالسرعة والنشاط فى وقت مبكر ، بعد السير طوال الليل :

كأَنَّها وقد بدا عُوَارض
وفاض من إيرٍ بهن فائض
وقِطْقِطٌ. حيث يخوض الخائض
والليل بين قَنَوَيْنِ رابض
بجَلْهَة الوادى قَطاً نَواهض (٢)

أليس هذا هو ما عناه فى قوله السابق فى ناقته :

ذعرت بها سِرْب القَطا وهْو هاجدٌ وعَيْن الفلاة لم تبَعَّث رياضها

وبعد :

فهذه هى ناقة الشماخ — منفردة ومع غيرها من الإبل — صورها تصويراً دقيقاً ، تناول أجزاء جسمها وحركاتها وطباعها ، وما يتعلق بها ، وهو فى وصفه لها يكاد لا يختلف — فى الصفات العامة — عما أجمع عليه الشعراء من سابقيه ومعاصريه إلا فى صيغ العبارات ، وبعض الجزئيات ، فمعظم أوصافه لها رددها من قبله طرفة ابن العبد ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، والمثقب العبدى . . . وغيرهم ، وهم جميعاً متشابهون فى وصف نياقهم ، من حيث الضخامة ، واكتناز اللحم ، والقوة ، والسرعة فى الجرى ، والقدرة على احتمال الأسفار ، واجتياز المسافات الطويلة إبان اشتداد القيظ ، كما أنهم متشابهون فى صفة أجزاء جسمها .

وهم يستخدمون فى ذلك صوراً وتشابيه مادية حسية ، قريبة إلى متناول خيالهم

---

(١) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ١/٢٥ — ٤ .
(٢) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ١/٢٦ — ٥ .

عرفوها وألفوها فى بيئتهم وحياتهم ، هذا فضلا عن بعض العبارات والصور التى سبقوه إليها ، على ما سيأتى بيانه .

قوس الشمّاخ :

شعر الشماخ فى القوس — من حيث الكم (٢٤ بيتاً) — يكاد لا يذكر إلى جانب ما قاله فى الحمر ، أو الناقة . ومع ذلك فهو من أروع وأبدع ما جادت به قريحته ، وتفتقت عنه شاعريته فى فن الوصف ، بل فى شعره بعامة .

فقد استوحى فيه شاعرنا وجدانه ، وافتن فيه بسحر بيانه ، وأخلص فيه لفنه ، فانجلت قوسه عروساً بين القسىّ ، ودرة يفخر بها الشعر العربى .

تذوق القدماء فن الشماخ فى القوس ، ففطنوا لما فيه من جمال آسر ، وإبداع باهر . فأجزلوا الثناء للشاعر ، وعدوه لذلك من أوصف الشعراء للقوس ، كما عدوه من أوصفهم للحمر [١] .

وإذا كان القدماء قد قدروا للشماخ فنه فى القوس ، فقد عطر من فطن من المحدثين إلى روعته ، وسحره ، الثناء عليه ، وعده فيد ندًّا لعظماء من استلهموا الهياكل والجبال المقدسة ، فجادت عليهم بالآيات البينات ، كما عد شعره فى القوس من روائع الخيال ، ورقائق الفن [٢] .

والآن . ما شأن هذه الحسناء التى بهرت القدماء والمحدثين ؟

لنعر سمعنا لصوت الشماخ الهادر عبر القرون ، يحدثنا عن قوسه ، وباريها ، وشاريها :

يقول الشماخ ، بعد حديث له عن الحمر الوحشية :

وحلَّأَها عن ذى الأَرَاكة عامرٌ أَخو الخُضْر يرمى حيث تكْوى النَّواحِز
قليل التِّلاد غير قوسٍ وأَسْهُمٍ كأَن الذى يَرْمِى من الوحش تارزُ

---

(١) راجع : ص ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : مجلة الكتاب (المجلد الحادى عشر — الجزء الثانى ، فبراير سنة ١٩٥٢) : ص ١٥٤ .

٣ – مُطلاًّ بزرْق ما يداوى رَميُّها وصفراءَ من نَبْعٍ عليها الجَلائز
٤ – تخيَّرها القواسُ من فَرْع ضَالَةٍ لها شَذَبٌ من دونها وحواجز
٥ – نمتْ فى مكانٍ كَنَّها واستوتْ به فما دونها من غيلها مُتَلاحز
٦ – فمازال يَنْجُو كل رْطب ويابس ويَنْغَلُّ حتى نالها وهْوَ بارز
٧ – فأَنحى عليها ذاتَ حَدٍّ غرابُها عدوٌّ لأَوساط العِضاه مُشارز
٨ – فلما اطمأَنتْ فى يديه رأَى غِنًى أَحاط به وازْورَّ عمن يُحاوِزُ
٩ – فمظَّعها عامين ماءَ لِحَائها وينظرُ منها أَيّها هو غامز
١٠ – أَقام الثّقافُ والطريدة دَرْأَها كما قوّمتْ ضغْنَ الشّموس المهامز
١١ – فوافى بها أَهلَ المواسم فانْبَرى لها بيِّعٌ يُغْلى بها السَّوْم رَائز
١٢ – فقال له : هل تشتريها فإنها تباع بما بيع التِّلاد الحرَائز؟
١٣ – فقال : إزارٌ شَرْعَبىٌّ وأَربعٌ من السِّيَراء أَو أَوَاقٍ نواجز
١٤ – ثمان من الكورىّ حُمْرٌ كأَنها من الجمْر ما أَذْكَى على النار خابز
١٥ – وبُرْدَان من خالٍ وتسعون درهماً ومعْ ذَاكَ مَقْرُوظٌ من الجلْد ماعز
١٦ – فظلَّ يُناجى نفسه وأَميرها أَيأْتى الذى يُعطى بها أَم يجاوز؟
١٧ – فقالوا له : با يع أَخاك ولا يكن لك اليوم عن ربحٍ من البيع لاهز
١٨ – فلما شراها فاضت العين عَبْرةً وفى الصدر حُزَّاز من الوجد حَامز
١٩ – وذاق فأعطته من اللِّين جانبا كفى . ولَهَا أَن يُغرق السهمَ حاجز
٢٠ – إذا أَنْبَض الرَّامُون عنها ترنَّمتَ ترنُّم ثَكْلَى أَوجَعَتْها الجنائز
٢١ – قذوفٌ إذا ماخَالطَ الظبىَ سَهْمُها وإنْ ريغَ منها أَسْلَمتْه النَّواقز
٢٢ – كأَن عليها زَعْفراناً تُميرُه خوازن عطَّارٍ يَمَانٍ كوانز
٢٣ – إذا سقط الأَندادُ صينَتْ وأُشْعرت حَبيرًا ولم تُدْرج عليها المَعاوز[1]

(١) الديوان : ٨/١٨ – ٤٠ .

فهذا عامر أخو الحضر[١] رابضاً على ماء «بذى الأراكة» ، قليل التلاد غير قوس تقذف بالمنايا ، وأسهم تعرف طريقها إلى مقاتل الوحش ، أحست به الحمر التى جاءت ظامئة ، وكأنما عرفته عرفان خبير بنكاية مرماه ، وشدة قوسه ، ووقع سهامه ، فصدت عن الماء هاربة ، لم ترو ظمأ ، ولم تطفئ فى جوفها جمراً .

هذا حديث عامر والحمر ، فما قصة قوسه من لدن كانت غصناً فى فرع ضالة ، إلى أن صارت إلى يده ، يريع بها الوحش ، ويسقيه بها كئوس المنايا ؟

كانت غصناً فى فرع ضالة غذتها فما بخلت ، ورعتها فما قصرت ، أقامت دونها الستور من رطب ويابس ، تحجبها عن عين كل متطفل ، ونصّبت من حولها الحراس شاهرى السلاح فى وجه كل ذى يد تتلصص . ورآها قواس — وكُلّ معاشه بكدّ يده ، قد دَرِبَتْ عيناه على اختراق الحجب إلى كل حسناء من أمثالها تحتجب ، واجترأت يداه على مثل أحراسها ، فما قام لها فى وجهه سلاح — فأعجبه مرآها ، وشغل قلبه بهواها ، وكان لابد له من أن ينالها ، وأن يجاوز الأحراس والستور إليها .

ها هو ذا يعمل فأساً باترة الحد فيما دونها من حجب وحراس ، فلم يدع رطباً ، ولا يابساً ، ولا ذا شوكة ، حتى أرداه ، متغلغلا فى حشا الغيل المظلم ، لا يأبه بما يصيبه ، من خدش هنا ، أو لطمة غصن هناك ، أو عرق يتحلب من جبينه فينضح به ثيابه ، أو ما هو أهون من ذلك أو أجل . . إنه مهر الحسناء ، ومن خطب الحسناء فليغلها المهر ، وماذا عليه من هذا العناء ما دام قد وصل إليها أخيراً ، ووقف أمامها بارزاً للشمس بعد احتجاب . فراعته سافرة ، كما أعجبته من قبل محتجبة ، ولم يلبث أن أنحى عليها فأساً ذات حد ضارٍ ، يتعجل ثكل أمها ، وكأنه عدو يشتفى من عدوه الذى تمكن منه .

واستقرت الحسناء فى يد عاشقها ، فاستبشر بدنيا مقبلة ، واهتز من فرح بغنى يؤمله ، وانطلق العاشق بفتاته ، كلفاً بها ، وكأنما ليس فى الدنيا سواها . مستغنياً بصحبتها عما عداها .

---

(١) انظر تعريفنا به عند شرح البيت الأول من هذه الأبيات فى هامش الديوان .

ومهد لها فى الظل فراشاً ، استقرت فيه عامين ؛ لتجف وتشرب ماء لحائها فى أناة ، بعيداً عن حبال الشمس ، إشفاقاً عليها من أذى لهيبها المستعر .

وعاش فى بؤسه عامين ، يراها وتراه ، يحيا لها ويحييه منها الغنى والأمل ، وكأنه لا يطيق فراقها ، فهو يتردد عليها ، يقلبها فى مهدها ، ويتحسسها فى لهفة العاشق ، ويلويها فى رفق ، فتلين بين يديه .

واستوفت الأجل ، فأنهضها ، وقد اشتد عودها ، وكأنما غرها عودها المنفتل ، فالتوت عليه ، وأحس منها إعراضاً ، وبدا له فى خلقها اعوجاج ، فأغرى بها ثقافه ، يقوم ما اعوج منها ، ولم يفد فى تأديبها الثقاف ، فأسلمها للطريدة . حتى أسلست القياد ، وخلعت عنها ثوب العناد . وإذ ذاك ضم إليها الوتر ، وجلاّها وافتن فى حلاها ، حتى غدت فى عينه عروساً يزهو بها ويفتخر ، ويضن بها على كل باذل مهما بذل .

ولكنه المال ، زينة تبهر ، ورب يُجل ! !

لقد عاوده حلمه بالغنى ، وغلبه على ذات نفسه فغواها ؛ وللمال سلطان قل أن يقاوم ، وأنى لفقير بائس أن يصمد أمام سطوة إغرائه ؟!

وانساق الغوى وراء حلمه ، فقصد بها أهل المواسم فلم يكد . . . حتى روّعت الغانية بعين تحملق فيها . . . إنها تعرف سحر رقاها ! !

وانبرى العاشق الجديد إليها ، وبين يديه احتواها ، يغمزها ! ! يتحسسها ! ! عرف العتق فيها فأبى إلا شراها .

وكشف له صاحبها عن خبيئة نفسه . . . إنها من النفائس التى لا تباع ، وكم يبذل فى النفيسة إذا بيعت ؟!

وأدرك الخبيث أن الرجل لن يذهله عن حريزته إلا غواية المال ، فأغراه بالتبر المصوغ ، وبالفضة ، والعُصُب الموشاة ، والخز ، وثياب الخال ، ومعها جميعاً جلد ماعز دبغ فأحسنت دباغته .

وأطرق الرجل ، وقد شبت بداخله حرب تضطرم . . . آخذ فيها المال ؟ . . . لا . . لست أقوى على فراقها ، إنها بعض نفسى ! ! .. وهذا المال . . إنه ثروة ،

وكم عشت أحلم بها ؟!.. إنها الآن بين يدى . . الصواب أن أقبل . . . لا . . أى شيطان يغرينى ؟! فليذهب المال . . إنه فداها . . . ولكن هذا البؤس، هل يظل هكذا حليفى ؟! . . لا . . كفانى فقراً . . كلا . . . كلا .. فى النفس هواها !!..

وبينما الرجل لا يزال . . إذ التف حولهما أخلاط من الناس، حداهم ما ركب فى الطباع من حب الاستطلاع ، وسرعان ما وقفوا على جلية الأمر، فاتسعت منهم الأحداق . . أكل هذا المال فى قوس ؟ ! أيها الرجل تعساً لك .. !! ما يمنعك من البيع ؟! بايع أخاك . . إنه ربح وفير !! لا يفوتنك !!

وأسقط فى يد الرجل، وحالت هذه الأصوات بينه وبين الإصغاء إلى هاتف قلبه . . فباع وأخذ المال ..

وعاد كل من حيث أتى .. وتلفت الرجل حوله . . وتحسس مكان قوسه . . وحملق فى المال بين يديه . . . ويحى لقد بعتها ! !

وفاضت عيناه بدموع الندم . . وتقطعت نفسه حسرات .. وهناك فى القلب جمر متقد .

ومضى الفارس المحظوظ بسبيته ، وهو يكاد لا يصدق أنه حازها . . كيف ، وها هى ذى فى يده ، فليختبرها . . وذاقها فأعجبه طبعها ..

وهناك فى البرية أخذ يطوف بها الوهاد، ويعلو النّجاد، ويؤم بها الموارد . . يسكن السهم حشاها ، ثم ينبض عنها ، فإذا هى تعول تندب ثكل بنيها .

وتمكنت من قلبه بهذا العويل ، وشدة قذف بها تنفرد ، وبفعلها فى الصيد ، إن خالطه سهمها لم يرِمْ ، وإن مال عنه أفزعه صوتها فخانته القوائم . . ثم بجلوة عروس ليلة زفافها، تعلوها صفرة الرهبة ، ويفوح منها شذا طيب عتيق . .

وهو لمنزلتها من نفسه ، ومحلها من قلبه ، حفى بها ، شديد الحدب عليها ، يؤثرها بجديد الثياب إن سقط الندى ، ضنًّا بها ، وحرصاً عليها .

تلك قصة هذه القوس كما يصورها ويوحى بها شعر الشماخ ، بث فيها صوراً من عواطف الحب والحنان والزهو والاعتزاز ، واللوعة والأسى ، وغاص إلى أعماق النفس ليصور بعض ما ركب فيها من طباع .

وهو ينفذ إلى ذلك كله من خلال وصف ساحر بارع . يتناول فيه تصوير واقع محسوس . ولكن بطريقة تتيح لخيال القارئ أن يحلق مع الشاعر ، فيرى بعينه ، ويحس بإحساسه ، ويعيش معه تجربته ، وتلك سمة الفنان المبدع الأصيل الذى تتجلى قدرته الفنية فى قلب المتذوق لفنه فناناً ، ومن هنا قال بعض النقاد : « إننا نعرف أن هذا الإنسان شاعر بقدرته على أن يجعلنا شعراء »[1] .

فانظر إليه كيف صور القوس — وهى لا تزال غصناً من فرع ضالة محتجباً عن العيون[2] — إنه ليثير فى خيالنا صورة حسناء من أكرم العقائل ، ترعرعت فى بيت عز ، فهى تتقلب فى أحضان النعيم ، وتستأثر بالرعاية والعناية من كل من يحيط بها . . قد صفا لها العيش وسط أمن ودعة ، فاستوت غادة تستهوى القلوب ، وتشد إلى جمالها العيون .

ثم تخيَّلْ صورة فارس عاشق اندفع يقتحم المخاطر . حتى خلص إلى فتاته ، فاختطفها وراح مزهواً بها ، يقف حياته عليها ، ويستغنى بصحبتها عن الأهل والأصحاب ، وتعال نقرأ سوياً هذين البيتين :

فما زال ينجو كل رطب ويابس ... وينغل حتى نالها وهو بارز

فلما اطمأنت فى يديه رأى غنى ... أحاط به وازور عمن يحاوز

أرأيت كيف يمكن للخيال أن يربط بين الصورتين ؟! بل أرأيت هذا الفن البارع فى التعبير بقوله : « ينغل » وقوله : « رأى غنى أحاط به . . . » إلخ ، إنه بهذا البيان المجنح يطلق لخيالنا العنان ليذهب فى تخيل الصورة كل مذهب . . .

والشماخ فى هذه الأبيات لايزال يروعنا بفنه ، فيعرض علينا منه ألواناً ، كلها معجب رائق . يترقرق فيها الخيال بجداول من العاطفة . يتردد صداها فى نفوسنا .

انظر إذن إلى تلك اللمحة الوجدانية فى قوله :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ... ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

---

(١) الأسس الفنية للنقد الأدبى : ١٣٠ .

(٢) راجع البيتين : ٣ ، ٤ من الأبيات السابقة .

ألا تراه كيف خلع على هذه القوس ذاتاً ومعاناة إنسانيتين ، إنه لا يشبه رنينها برنين آخر ، بل التفت إلى الداخل ، فقارن بين ذلك الرنين ، وحالة نفسية ، فإذا تلك القوس ثكلى تبكى وتنتحب .

وإليك رائعة أخرى من روائعه فى هذه الأبيات ، تلك التى يمس فيها وتراً حساساً من قلب كل إنسان ، ويعمق تجربته الإنسانية ، فيصور تدله الإنسان بصنع يديه ، وما ينتابه من الضنى والأسى بفقده :

فلما شراها فاضت العين عبرة وفى الصدر حزاز من الوجد حامز

بهذا الإيجاز الرائع عبر شاعرنا عن هذه العاطفة الإنسانية الراقية ، التى يستشعرها كل منا إزاء عمله ، الذى يودع فيه طائفة من نفسه ، ويفنى فيه ضراماً من قلبه ، سواء أكان هذا العمل ذهنيًّا أم بدنيًّا .

هذا فضلا عن التلميح إلى ما فى جبلة الإنسان من حب للمال ، وضعف أمام سلطانه . ويكفينا ما قدمنا من هذه الباقة المعطرة بشذا الفن الأصيل ، وأملنا أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه من الإعراب عن براعة الشماخ وافتنانه ، وإخلاصه لفنه الذى بلغ به قمة الروعة فى هذه التحفة الفنية ، التى تعد بحق جوهرة من جواهر الشعر العربى القديم .

* * *

مر بنا أن الشماخ قد ألم فى فن الوصف بكثير من موضوعات بيئته ، وأن الموضوعات الثلاثة السابقة كانت أبرز هذه الموضوعات . وأكثرها دلالة على أسلوبه ، ومذهبه فى فن الوصف ، ومدى إبداعه فيه ، على أنه قد يكون من المفيد ألا نهمل بقية موضوعاته الأخرى ، فهى — على الرغم من قلة شعره فيها ، وإلمامه بوصفها إلماماً سريعاً ، يوحى بأن وصفه لها لم يكن غاية فى ذاته — لا تخلو من لمحات فنية رائعة ، تحمل طابعه الأصيل ، وتؤكد براعته ومقدرته على التصوير والتعبير فى هذا الباب .

فمن ذلك قوله يصف ظبية وولدها :

فبعثتُ هُلْواعَ الرَّوَاح كأنها خنساءُ تتبع نائياً مِخْراقا
سَفْعَاءُ وقَّفَها السَّوادُ ترى لها زَمَعاً وصَلْن شَوًى لهن دقاقا

باتا إلى حقْفٍ تَهُبُّ عليهما نَكْباءُ تَبْجِسُ وابلاً غَيْداقا
من صوْب سارِيةٍ أَطاع جهَامَها نكباءُ تَمْرِى مُزْنها أَوْدَاقا
فثنَى يدَيْه لَرَوْقَه متكنِّسًا أَفنان أَرطاة يُثرن دُقاقا
وكأَنه عانٍ يُشاور نفسَه غابتْ أَقاربه وَشُدَّ وَثَاقا
فى عازب أُنُف تَبَاهَى نبته زَهْرًا وأَسْنَق وحْشه إسْناقا
فتوجَّساً فى الصُّبح رِكْزَ مكلِّبٍ أَو جاوزاه فأَشفقَا إشفاقا

وبعد أن وصف هذا الصياد وكلابه عاد إلى وصف ولد الظبية فقال :

وغدا يُنَفِّض مَتْنَه من ساعةٍ كالسَّحْل أَغْرَب لونه إلْهاقَا[1]

يبدأ الشاعر بتشبيه ناقته فى سرعتها بظبية تركت ولدها الصغير بمكان بعيد، فهى تسرع فى العدو لكى تصل إليه قبل أن يحل الظلام ، ثم يستطرد إلى وصف هذه الظبية، فيرسم لها صورة خارجية سريعة، يقتصر فيها على بعض الملامح العامة ، فلونها أسود مشرب بحمرة ، وقوائمها نحيفة بها خطوط سود ، تدلت فى مؤْخر كل منها شعرات . وقد لجأت هذه الظبية وولدها ليلا إلى جبيل مشرف من الرمل، بعد أن فاجأتهما رياح شديدة باردة، تسوق سحاباً قد أفرغ ماءه فى مكان بعيد مريع ، تباهى نبته بجمال زهره ، وبشم وحشه لخصوبته ، وفزع الصغير إلى أغصان متدلية من شجرة أرطاة ، قد لعبت بها الرياح فهى تثير التراب ؛ ليتخذ منها كناساً يستتر فيه من هذه الريح وقد ثنى يديه ، وأطرق برأسه إلى الأرض ، فبدا كأسير بعد أهله ، وشد وثاقه ، فهو منكمش، يفكر فى حاله .

وفى الصباح جاءهما صوت من بعيد لصياد يناجى كلابه ؛ فأظلهما الخوف ، ومن ثم نهض الصغير ينفض متنه مما علق به ، وقد بدا من بعد لشدة بياضه كالثوب الأبيض .

ولعل أبدع ما فى هذا الوصف ، هى تلك الصورة التى رسمها الشاعر لولد الظبية ، وهو منكمش مطرق فى كناسه فى قوله :

---

(١) الديوان : ١٣/١٣ — ٢٠ . ثم البيت : ٢٤ ، وهذه الأبيات هى كل ماقاله فى وصف الظباء تقريبا .

فثنى يديه لروقه متكنساً أفنان أرطاة يثرن دقاقا
وكأنه عان يشاور نفسه غابت أقاربه وشد وثاقا

فهو لا يكتف هنا بالمقارنة بين صورتين يجمع بينهما شبه تحسه العين ، وإنما يجاوز ذلك إلى تصوير حالة نفسية، تضطرب بانفعالات الخوف والألم والشعور بالعجز ، وهذه التجربة النفسية الإنسانية التى يخلعها الشاعر على هذا الحيوان ، قد مر بنا مثيلات لها فى وصف الحمر والقوس، وهى كلها شاهدة على أن شاعرنا لم يقتصر على وصف المشاهد وصفاً تقريرياً . مصدره الحواس، بل كان يلونها أحياناً بلون نفسى . يكشف عن انعكاس صورها فى نفسه الشاعرة ، وهذا هو ما يسمونه « بالوصف الوجدانى » ، الذى تتضح فيه شخصية الشاعر . ولا يكون الوصف فيه مجرد وصف حسى جمالى . وقد وفق الشماخ فى تناول هذه الفلذات الوجدانية فى وصفه ، وبرع فيها، إلى حد يسمح لنا بأن نعتبره من الرواد الأول لهذا الفن فى هذا العصر المبكر .

ولسنا ندعى بأن هذا اللون من الوصف (الوجدانى) مطرد فى كل ما تناوله الشماخ من موضوعات وصفه، وإنما هى لمحات تخللت وصفه لبعض الموضوعات ، تختلف قلة وكثرة ، بينما خلت منها موصوفات أخرى ، فجاء وصفه لها حسياً مادياً ، تقوم فضيلته على دقة الملاحظة، وصحة التشبيه « وهذا هو الاتجاه نفسه الذى غلب تلقائياً على فن الوصف عند شعراء العرب الأقدمين، وبخاصة فى عصر الجاهلية ، وصدر الإسلام، وهو الاتجاه الذى يسميه نقادنا ودارسو أدبنا القديم بالوصف الحسى . . »[1].

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً فى وصفه للناقة، حتى ليكاد يقتصر عليه، وفى قوله يصف ظليماً وأنثاه :

يدا مهاة ورجلا خاضب سَنِق كأنه من جناه الشَّرْى مخلول
هَيْقٌ هِزَفٌّ وزَفَّانيَّةٌ مَرَطَى زَعْراءُ ريش ذُنَابَاها هَرَاميلُ

---

(١) فن الشعر (الدكتور مندور) : ٥٧ .

كأنَّما منْثَنَى أَقْمَاع ما مَرَطَتْ ... من العِفَاءِ بليتَيْها ثآليل
تروَّحا من سَنَام العرْق فالْتَبطَا ... إلى القِنَان التى فيها المَدَاحيلُ
مَخَوِّيَيْن سَنَامٌ عن يمينهما ... وبالشِّمال مَشَانٌ فالعزاميل
إذا استهلاّ بشؤبُوب فقد فُعلتْ ... بما أَصابا من الأَرض الأَفاعيل
فصادفا البيْضَ قد أَبْدَتْ مناكبَها ... منه الرِّئَالُ لها منه سرابيل
فنكَّبا ينْقُفَانَ البَيْض عن بَشرٍ ... كأَنه وَرَقُ البَسْبَاس مَغْسول
ثم استمرا بحَفَّانٍ له زَجَلٌ ... كالزَّهْو أَرْجُلها فيها عَقَابيل[1]

فهو فى هذه الأبيات يبدأ — كسابقتها — بتشبيه رجلى ناقته وهى مسرعة برجلى ظليم أكل الربيع ، حتى بشم واحمرت ساقاه ، ثم يستطرد إلى وصف هذا الظليم ، فيشبهه فى سيلان لعابه من أكله الحنظل بالفصيل الذى شد لسانه بالخلال ، فسال لعابه ، أو فى امتناعه عن الطعام لشبعه بالفصيل المخلول الذى لا يتمكن من الرضاع ، فهو لا يرضع .

وهو إلى جانب هذا طويل ضخم ، كثير الريش ، تصحبه نعامة سريعة ، تتبختر فى عدوها ، وكأنها ترقص ، زعراء قد سقط ريش ذنبها ، ونتف ما على صفحتى عنقها منه ، ولم تبق إلا آثاره التى تشبه البثرات .

ثم ينتقل إلى ما أراد من هذا التشبيه الاستطرادى (وهو استيفاء وصف ناقته بالسرعة) ، فأوضح أن هذا الظليم وأنثاه قد جدا فى العدو ؛ ليدركا — قبل حلول الظلام — بيضاً خلفاه بمكان بعيد . فهما لشدة عدوهما يؤثران فى الأرض بأظلافهما فيخددانها . ثم يذكر أنهما وجدا البيض قد انفلق عن أعلى الرئال ، وبقى سائرها فيه ، فكانت لها كالسرابيل ، ومن ثم ، ما لا يقشرانه ويزيلان ما بقى منه على جسد الرئال ، التى خرجت وكأنها لما عليها من ماء البيض مغسولة لم تجف .

وينتهى إلى وصف صوت فراخهما ، وحسن ألوانها وبهائها ، وما فى أرجلها من هنات تشبه القروح الصغار ، التى تخرج بشفة الإنسان من بقايا المرض .

---

(١) الديوان : ١٤/١٦ — ٢٣ ؛ والبيت الخامس منها من زياداتنا فى الهامش .

فانظر كيف وقف الشاعر يراقب موصوفه ، ويسجل ما تقع عليه حاسته من الأشكال والأوصاف الدقيقة .

فالظاهرة هنا لم تنتقل من حاسة الشاعر إلى نفسه ، بل وقف عند حدودها محاولا مجاراتها أو تقليدها ، وقد استخدم فى هذه المحاولة ما ترى من الصور والتشابيه المادية ، التى لا تخلو ألفاظها من صعوبة ومشقة . ولكنها لا تخلو مع ذلك من جمال فنى يرجع إلى البراعة والدقة فى التصوير . من مثل تصويره للرئال حين انفلق عنها البيض ، وحين ذهب بها أبواها ، ثم تلك الصورة الأخرى لآثار الريش الساقط بصفحتى عنق النعامة ، وكان هارون الرشيد يعجب بها إعجاباً شديداً ، فقد روى أنه سأل الأصمعى يوماً قائلا : « أتعرف بيتاً أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقى أثره فى قوله : (البيت) . . فقال الأصمعى : لا والله يا أمير المؤمنين . . »[1].

أرأيت كيف فطن الرشيد إلى سر جمال هذه الصورة . فأرجعه إلى ما فيها من الإبداع مع الواقعية !!

ومع هذا ، فالمتعة الفنية التى يحصلها المتذوق لهذا الوصف وأمثاله متعة ناقصة ، « فإحساساتنا الجمالية هى وحدها التى يمكن أن تطرب لهذا النوع من الشعر ، وأما حاجاتنا العاطفية ، والانفعالية ، فإنها تظل ظمأى . . »[2].

ونحن نسوق مثلا آخر لهذا الاتجاه الحسى فى وصف الشماخ .

أراد شاعرنا أن يرسم صورة الأتن وهى تسرع هاربة من الصياد ، تلمع ظهورها الملساء المخططة بخطوط سود ، وأن يجسم هذه الصورة فجعلها شبيهة بعقاب تجد فى طلب الصيد . فهى لا تزال تخفق بجناحيها ، وينعكس الضوء على قصب ريشها الأسود ، فيرى له بريق ولمعان ، ثم راح يصور هذه العقاب ، وحرصها على الانطلاق مسرعة إذا أصابت لحماً طريًّا ، لتغذو به فرخها الفازع الغضب من شدة الجوع ، ومطاردتها لفرائسها ، فهى يوماً تجر برأس أرنبة . وآخر تطارد ذئاباً ، أو تطلب ذكور الأرانب ، فترى الثعالب تمعن فى الهرب منها كما يمعن المدين فى

---

(١) شرح مقامات الحريرى : ٢/٢٨٣ .

(٢) فن الشعر (مندور) : ٦٠ .

الهرب من صاحب الدين ، ويخلص من ذلك كله إلى وصف وكرها، وما فيه من بقايا الحيات، التى هى من أطيب طعامها . وإليك قوله فى هذا كله :

كأَن متونهن مُوَلِّيـات ... عِصِىٌّ جَنَاح طالبة لَمُوع
قليلًا ما تَرِيثُ إذا استفادتْ ... غَريضَ اللَّحْم من ضَرم جزُوع
فما تنفكُّ بين عُوَيْرضَاتٍ ... تَجُرُّ برأْس عِكْرشَةٍ زَمُوعِ
تطاردُ سيدَ صَاراتٍ ويوماً ... على خِزَّان قارات الجموع
تلوذ ثعالبُ الشَّرفَيْن منها ... كما لاذَ الغريمُ من التَّبيع
نَمَاهَا العزُّ فى قَطَن نَمَاهَا ... إلى فَرْخَينْ فى وكْرٍ رفيع
ترى قطَعاً من الأَحْنَاش فيه ... جَمَاجمُهُنَّ كالخَشَل النزيع[1]

تلك هى صورة العقاب فى شعر الشماخ ، وهى صورة تموج بالحركة ، إلا أن الشاعر فيها لم يتخل عن النقل الحسى المادى. الذى لا يرجع إلى أبعد من حدقته .

وموضوع العقاب قد تناوله من قبله « عبيد بن الأبرص» وغيره ، إلا أن أحداً لم يستطع أن يلحق بعبيد فيما رسم لها من صورة تشبه أن تكون وجدانية[2].

هذا ولم يهمل الشماخ وصف ما تعج به بيئته البدوية من كائنات حية أخرى إهمالا تامًّا ، فقد تناول بالوصف بعض نباتات وأشجار الصحراء ، كالنبع والضال ، والعرفج ، والسدر ، والخطمى . . . وغيرها ، وبعض حشراتها : كالذباب ، والقراد ، والنحل ، والحيات . . . وأصناف من دوابها كالجعل ، وابن آوى . . . أو بعض سباعها : كالذئب .. إلى غير ذلك مما ألف رؤياه فى البادية ، وجاء فى شعره فى معرض تشبيه أو نحوه ، دون أن يتجاوز البيت الواحد ، أو نصفه أو الجزء منه .

ولذلك فنحن نضرب صفحاً عن عرض قوله فيها ، أضف إلى ذلك أن مذهبه

---

(١) الديوان: ١٠/ ٢٩ – ٣٢ ، ثم: ١٩ – ٢٠ ، ثم ٣٣ ،وقد وردت هذه الأبيات فى الديوان على غير هذا النحو الذى رتبناها عليه مراعاة للمعنى ، وتمثل هذه الأبيات كل ما قاله الشماخ فى « العقاب » .

(٢) انظر : فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/ ٤٤ – ٤٦ .

فى وصفها لم يخرج عن الاتجاه الحسى المادى الذى ذكرنا .

على أن وصف الشماخ لم يقتصر على ما فى بيئته من كائنات حية ، بل جاوز ذلك إلى وصف الصحراء ومشاهدها الأخرى ، فوصف اتساع أرجائها ، وجدبها ، واشتداد لهيبها فى قوله :

بمفطوحة الأطراف جَدْبٍ كأنما تَوَقَّدُها فى الصَّخْر نيران عرْفَجِ [١]

وقوله ، وذكر الناقة :

وقد سُلَّ عنها الضِّغْنُ فى كل سَرْبَخٍ له فَوْرُ قدْرٍ ما تَبُوخ سعيرها [٢]

وهى متشابهة المعالم ، مضلة ، واسعة ، يتيه فيها السائر ، صعبة المسالك ، تجد كرائم المطايا عنتاً ومشقة فى السير فيها :

ودوِّيّة تيهاء قفْر مَرَادُها مَرُوت يُكلُّ العيسَ فيها ارتكاضها [٣]

كما وصف ليلها الرهيب فى ظلامه الحالك ، وسكونه الموحش ، فقال :

بليل كلون السَّاجِ أَسْوَدَ مُظْلِمٍ قليل الوَغَى داجٍ كلوْن اليَرَنْدَج [٤]

وهناك مظهر آخر من مظاهر الرهبة والوحشة فى الصحراء ، مبعثه صوت الرياح المترددة فى جنباتها وأرجائها ، ذلك الصوت الذى يغرس الرعب فى القلوب ، وكأنه صرخات الجن فى جلبتها ولعبها :

كأَن هزيزَ الرِّيح بين فروجه عَوَازفُ جنٍّ زرْن جنًّا بجَيْهَمَا [٥]

هذا بالإضافة إلى وصف رياحها ، وطبيعتها المتجهمة ، وسرابها المترقرق ، وسمائها وما فيها : من نجوم وكواكب وسحاب وأمطار . . وغير ذلك ، مما يطول بنا تقصيه ، وتقل الحاجة إلى عرض ما قيل فيه .

---

(١) الديوان : ٢/٥٢ ، وروى « فى الصيف » بدل « فى الصخر » وهو الأنسب .

(٢) الديوان : ٧/٢٣ .

(٣) الديوان : ٩/٤ ، وفى بعض معنى هذا البيت يقول امرؤ القيس :

ودوية لا يهتدى لفلاتها بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب

(٤) الديوان : ٢/١٩ . (٥) ملحق الديوان : ٤٤ .

ووصف الصحراء موضوع عام ، يكاد لا يخلو منه شعر جاهلى : « إذ كانت الصحراء بالنسبة للجاهلى ، بيئته الطبيعية ، لا ينفك يتجول فيها ، أو يتردد إليها طالباً رزقه ، ومتنازعاً بقاءه ، ولا يجهل أحد صعوبة اجتياز الصحراء ، خاصة فى مفازاتها الموحشة المخيفة ، حتى غدا ارتيادها وجهاً من وجوه البطولة والفروسية »[١] .

وحول جدب الصحراء وصعوبة ارتيادها ، ومظاهر الوحشة والرهبة فيها ، والتفاخر باجتيازها ، يدندن الشماخ وغيره من الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، يكادون لا يختلفون إلا فى بعض التشابيه والجزئيات وصيغ العبارات .

ولا يفوتنا أن نعرج فى نهاية الحديث عن الوصف فى شعر الشماخ ، على وصفه لمظهر حزين من مظاهر تلك البيئة الصحراوية القاسية ، ونعنى به ، وصف الرسوم والأطلال والدمن والأثافى . . وغيرها ، من آثار الديار والمنازل التى أقفرت من أهلها ، وخلفوها خراباً تثير لوعة الشعراء وذكرياتهم وأشجانهم كلما مروا بها ، أو عرجت عليها مطاياهم .

ووصف الشماخ وغيره من الشعراء الأقدمين لهذه الآثار وصف قاتم ، يصور جانباً حزيناً من حياتهم ، يرسم رسومهم الكئيبة ، وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوابد والوحوش ، وتجور الطبيعة برياحها وأمطارها . . على معالمها فتعفيها .

وقد جرت سنة الشعراء الأقدمين ، على استهلال قصائدهم بوصف هذه الآثار ، حتى أصبح ذلك تقليداً يترسم فيه اللاحق قدم السابق .

وعلى الرغم من أن تجربة الرسوم والأطلال من أعمق التجارب الشعرية ، لما تهيجه فى النفس من حس الندم والبراح والحنين ، فإن الشعراء الأقدمين تناولوا وصفها على نحو تقليدى ، متجاوزين تجاربهم الشخصية — غالباً — ومن ثم ، جاء شعرهم فيها بارد العاطفة ، جامد المشاعر .

على هذا الدرب تهادت خطا الشماخ فى وصفه لآثار الديار .

فهو معنى — كسابقيه — بذكر اسم الأثر ، وتعيين مكانه ، فيقول :

أتعرف رسْماً دارساً قد تغيَّرا بذَرْوَةَ أَقْوى بعد ليْلى وأَقْفرا[٢]

---

(١) فن الوصف (إيليا حاوى) ١/٣١ . (٢) الديوان : ١/٥ .

ويقول :

أَمِنْ دِمْنَتَيْن عرَّجَ الركبُ فيهما بحقْل الرُّخَامَى قد أَنَى لبلاَهُما [١]

ويصف — كما وصفوا — شكله العام ، فيشبهه بالكتابة ، ويحاول أن يجدد فى هذه الصورة التقليدية . فيخص التشبيه بكتابة عبرانية خطها حبر من أحبار اليهود ، فلم يتأن أو يتأنق فى الخط فإذا هو خربشة :

كما خطَّ عبْرانيَّةً بيمينه بتَيْماءَ حَبْرٌ ثم عَرَّض أَسْطرا [٢]

وقد يتصنع الدهشة حين يقف على الأطلال والرسوم الدارسة لمنازل الحبيبة ، فيدعى أنه لم يتعرف عليها أول الأمر لشدة ما أصابها من التحول ، ثم لا يلبث أن يعرفها : يقول :

لمن طلل عافٍ ورسم منازل عفتْ بعد عَهْد العاهدين رياضُها
عفتْ غَيْرَ آثار الأَراجيل تَعْتَرِى تَقَعْقُعُ فى الآباط منها وِفَاضُها
منازلُ للميْلاء أَقفر بعدنا مَعَالِمُها من رَاكِسٍ فمِرَاضُها [٣]

وهذا كلام لا روح فيه ، قد علا فيه رنين التقليد ، ولولا ما فى البيت الثانى من تصوير دقيق لهرولة الرجالة من الصيادين ، الذين يقصدون هذه الديار لصيد ما يعمرها من الوحش ، ووفاضهم تقعقع فى آباطهم ، لولا هذا ، لخلا هذا القول من كل جمال .

وتبدو هذه النزعة التقليدية فى وصف الرسوم والدمن والأطلال واضحة فى قوله أيضاً :

وعرفتُ رسماً دارساً مُخْلَوْلِقاً فوقفْتُ واستنْطقْتُه استِنْطَاقا
حتى إذا طال الوقوفُ بِدِمْنَةٍ خَرْسَاءَ حلَّ بها الربيعُ نِطاقَا
قفْر مَغَانيها تلوحُ رسومها بعدَ الأَحبة مُخْلِقٌ إخلاقا

---

(١) الديوان ١/١٧ .
(٢) الديوان : ٢/٥ .
(٣) الديوان : ١/٩ — ٣ .

عُجْتُ القَلُوصَ بها أسائل آيها والعينُ تَذْرى دمعة تَغْساقا[1]

فهذا الضجيج والعجيج الذى لاطائل تحته، هو أوضح دليل على أن الشماخ لم يتناول وصف هذه الآثار بعاطفته ، ولا صدر فيه عن تجربته الخاصة ، فهو يستنطق الرسم كما استنطقه سابقوه ، ويطيل الوقوف على الدمنة الخرساء التى جادها المطر ، ثم يذرف الدموع الغزيرة وينصرف ، وهذه المعانى والدموع لا تفيض عن الوجدان ، بل تتشابه عنده وعند غيره من الشعراء الأقدمين .

وعلى نحو من هذا جاء وصفه للأثافى ، وما بقى بينها من الرماد ، وآثار الحفر حول موضع الخباء، فى قوله :

أَمِنْ دِمْنَتَيْن عَرَّجَ الركبُ فيهما بحقل الرُّخَامى قد أَنَى لِبلاهُما
أَقامت على ربعيْهما جارتا صفاً كُمَيْتَا الأَعالى جَوْنَتَا مُصْطلاهما
وإِرْثُ رمادٍ كالحمامَة ماثِلٌ ونُؤْيَيْن فى مظلومتيْن كُدَاهما
أَقاما لِلِيْلى والرَّبَاب وزالتا بذات السَّلام قد عفا طللاهما
ففاضتْ دموعى فى الرِّداء كأَنها عَزَالَى شَعِيبَىْ مُخْلفٍ وكُلاَهُما[2]

فماذا تحت هذه الألفاظ الضخمة ، والتراكيب الثقيلة، من معان تفيض عن الوجدان ، وتعبر عن تجربة الحنين والبراح ؟! فضلا عن هذه المبالغة السمجة ، وتلك الصورة البدوية الجافية فى البيت الأخير .

أسلوبه فى الوصف :

عنينا فيما سبق بدراسة شعر الشماخ فى الوصف ، دراسة مفصلة إلى حد ما ، تناولت موضوعات وصفه ، ومدى تجويده فى كل منها ، مكثرين من عرض النماذج وتحليلها ، ودراستها ، والتعليق عليها ، وقد قصدنا إلى ذلك قصداً لسببين :

أولهما : أن الوصف هو الفن الذى اشتهر به الشماخ، وبرزت فيه مقدرته الفنية ، ولإبداعه فيه حظى بتقدير وإعجاب أهل البصر بالشعر من القدماء وبعض

---

(١) الديوان : ٩/١٣ — ١٢ . (٢) الديوان : ١/١٧ — ٥

المحدثين ، واحتل مكانته فى تاريخ الشعر العربى القديم ، كما أن معظم شعره ينصرف إليه .

وثانيهما : أن شعره فى الوصف يختلف باختلاف الموصوف ؛ فليس شعره فى كل الموضوعات سواء من حيث الجودة فى التعبير والتصوير ، وأسلوبه فى كل منها ، على نحو ما يستبين من دراستنا السابقة .

وإذ كان الأمر على ما ذكرنا فى ثانى هذين السببين خاصة ، فإنه من الصعوبة بمكان أن يحاول الدارس لشعر الشماخ فى الوصف استخلاص سمات عامة مطردة لمذهبه فى هذا الفن .

ومع ذلك فهناك بعض الظواهر الأسلوبية البارزة فى وصفه ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — كثرة الاستطراد من موصوف إلى آخر ، ويغلب أن يكون ذلك من وصف الناقة إلى وصف الحمر الوحشية ، وقد يستطرد فى القصيدة الواحدة إلى أكثر من موصوف ، ويكثر أن يكون التشبيه وسيلته فى هذا الاستطراد ، وهذه الظاهرة شائعة فى معظم وصفه . ولنضرب لذلك عدة أمثلة :

منها : قصيدته اللامية (الديوان : ١٤) . فبعد أن استهلها بثلاثة أبيات فى النسيب أخذ فى وصف ناقته فى اثنى عشر بيتاً ، ثم شبهها فى سرعتها بالظليم والنعامة ، واستطرد إلى وصفهما ، ووصف فراخهما فى تسعة أبيات ، عاد بعدها إلى الناقة فشبهها بالأتان ، ثم انصرف إلى وصف هذه الأتان حتى نهاية القصيدة .

ومنها : القصيدة العينية (الديوان : ١٠) . حيث يصف الناقة فى أربعة أبيات ، ثم يشبهها بحمار الوحش ، وإذ ذاك يستطرد إلى وصف هذا الحمار وأتنه فى عشرة أبيات ، ينتقل بعدها إلى تشبيه هذه الحمر وهى مولية بالعقاب ، ويأخذ فى وصف هذه العقاب حتى تنتهى القصيدة .

ومنها : القافيّة (الديوان : ١٣) . وفيها يبدأ وصف ناقته بتشبيهها فى سرعتها بظبية تطلب ولدها ، ويستطرد إلى وصف الظبية وولدها فى تسعة أبيات ، استطرد بعدها إلى وصف الصياد وكلابه فى ثلاثة أبيات : انتقل بعدها إلى وصف الحمر

إلى آخر القصيدة .

ونجد نحواً من هذا فى الزائية (الديوان : ٨) والرائية (الديوان : ٥) إلى جانب قصائده التى اقتصر فيها على الاستطراد من وصف الناقة إلى وصف الحمر عن طريق التشبيه ، وهى كثيرة .

وقد يقال : إن هذا التشبيه الاستطرادى[١] ، أو الطويل أو القصصى[٢] ، إنما يخدم به الشاعر — فى الوصف — غاية فنية ، وهى المبالغة فى توضيح المشبه ، واستيفاء المعنى الذى من أجله قصد إلى التشبيه . وذلك عن طريق الاستطراد فى وصف المشبه به ، وتوضيحه ، وإبرازه إبرازاً كاملا .

ونحاول تطبيق هذا القول على هذا الضرب من التشبيه فى وصف الشماخ . فنجده لا يطرد ، بل يكاد لا يحقق هذه الغاية . إلا فى القليل الذى يمكن حصره فى الأمثلة التالية :

(١) قال يصف سرعة يدى ناقته فى العدو ، وتحركهما فى تتابع سريع ويسر :

كأن ذراعيها ذراعا مُدِلَّة ... بُعَيْد السِّباب حاولت أن تَعَذَّرا
مُمَجَّدة الأعراق قال ابن ضَمَّرة ... عليها كلاماً جار فيه وأَهْجرا

ثم يستطرد إلى الحديث عن هذه المرأة المُدِلّة فيقول :

تقول لها جاراتُها إذْ أتيْنَها ... يحق لليْلى أن تُعَان وتُنْصرا
يَغَرْن لِمبْهاجٍ أَزالتْ حَليلَها ... غمامة صيف ماؤها غير أكدرا
من البيض أعطافاً إذا اتصلتْ دعتْ ... فِرَاسَ بن غَنْمٍ أو لَقِيط بن يَعْمُرا
بها شَرَقٌ من زعْفران وعنْبَر ... أطارتْ مِن الحسن الرداءَ المُحَبَّرا
تقول وقد بلَّ الدموعُ خمارَها : أَبَى عِفَّتى ومَنْصبى أن أُعَيَّرا

فقد يكون شرف نسبها وعفتها وجمالها ، وحديث جاراتها . باعثاً لها على التحمس والانفعال فى المسابة والاعتذار ، مما يجعل يديها أكثر سرعة فى تتابع حركتهما ، وأن هذا هو ما قصد إليه الشاعر ، ليبالغ ضمناً فى وصف سرعة ناقته .

---

(١) فن الوصف (إيليا حاوى) : ٨٢/١ .
(٢) تاريخ الشعر العربى (البهبيتى) : ٩٥ .

(ب) قوله السابق[١] فى وصف العقاب وتشبيه الحمر وهى مسرعة بها ، فقد بالغ فى وصف العقاب بالسرعة فى طيرانها ، مطاردة فرائسها أو مسرعة بالفريسة إلى فرخها الجائع ؛ ليبالغ ضمناً فى سرعة الحمر وهى مولية .

ومع هذا فنحن لا نجد علاقة بين قوله يصف وكر العقاب فى هذه الأبيات وهذه الغاية .

(حـ) قوله السابق[٢] فى الظليم والنعامة ، وتشبيه ناقته فى سرعتها بهما ، فقد أتى فى وصفهما بالسرعة بما لا مزيد عليه ، بيد أنه عرض لأوصاف ومعان يستكمل بها الصورة دون أن يكون لها أى اتصال بالموضوع الأصلى للتشبيه ، كقوله فى وصف النعامة من هذه الأبيات :

. . . . . زعراء ريشُ ذُنَابَاها هَراميل
كأنما مُنْثَنى أَقْمَاع ما مرطَتْ من العِفَاءِ بِلِيتَيْها ثآليل

وقوله فى وصف فراخهما :

فصادفا البيض قد أبدت مناكبها منه الرئالُ لها منه سرابيل
فنكَّبا يَنْقُفان البَيض عن بَشَرٍ كأنه وَرَقُ البَسْبَاس مغسول

(د) وقوله يصف سرعة ناقته فى طريقها إلى ممدوحه ، ويشبهها بأتان حامل تجد فى العدو هرباً من حمار مغتلم :

وإن ضُرِبَتْ على العِلاَّت حطَّتْ إليك حِطَاط هاديه شَنُون
تُوائلُ من مِصَكٍّ أَنَصْبَتْهُ حَوَالِبُ أَسْهَرِيْهِ بالذَّنين
متى يرد القطاةَ يَرك عليْها بحِنْو الرأس معترض الجبين
شَجٍ بالريق أن حَرُمت عليه حَصانُ الفَرْج واسقَة الجنين
طوت أحشاءَ مُرْتجة لوقت على مَشَج سُلَالتُه مهين.. [٣]

---

(١) انظر : الأبيات ص ٢٠٦ من هذا الكتاب .
(٢) انظر الأبيات : ص ٢٠٣–٢٠٤ من هذا الكتاب .
(٣) الديوان : ١٨/١٢ – ١٦ .

فتصويره لاغتلام الحمار ، وإلحاحه فى طلب غشيان الأتان ، ونفورها منه لما حملت ، إنما هو فى الواقع إبراز لإمعان الأتان فى الهرب ، وحرصها على ألا يدركها الحمار ، الذى يشتد فى طلبها ، فهى تبلغ بسرعتها الغاية ، فالاستطراد هنا يخدم الغرض الذى سيق من أجله وهو المبالغة فى وصف سرعة الناقة .

فإذا استثنينا هذه المواضع الأربعة ، وجدنا هذا اللون من التشبيه فى وصف الشماخ — على كثرته — لا ينطبق عليه القول السابق ، ومع أنه قد يبدو أحياناً — وخاصة فى تشبيه الناقة بحمر الوحش — أن الشاعر يرمى إلى إبراز الصفة التى يشبه من أجلها فى المشبه به ، والمبالغة فيها فإن التحول من التشبيه والمقابلة بين المشبه والمشبه به ، إلى التعمق بخصائص المشبه به ، وتفصيل أحواله وسماته — مما يقطع الصلة بين طرفى التشبيه — يدلنا على أن الشاعر لا يتغيا بهذا التشبيه تلك الغاية ، وإنما يتوسل به للانتقال من موضوع إلى آخر ، حتى ليخيل إلينا — وخاصة فى تشبيه الناقة بالحمر — أن الشماخ ما قصد إلا وصف الحمر ، وأن وصفها غايته ، وأن التشبيه ما كان إلا وسيلة للوصول إلى هذه الغاية — كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وقد يكون من دلائل ذلك ما نراه فى بعض القصائد ، من اقتصاره فى وصف الناقة على هذا التشبيه ، واستطراده منه إلى وصف الحمر . من ذلك قوله :

كأَن قتودى فوق جأب مطرَّدٍ من الحُقْب لاحتْه الجدَادُ الغوارز[1]

وقوله :

كأَنى كسوتُ الرَّحْلَ جَوْناً رَبَاعِياً بليتيْهِ من زَرِّ الحمير كُلُوم[2]

على أن ظاهرة الاستطراد هذه فى وصف الشماخ لم تتوسل بالتشبيه دائماً ، فهو فى استطراده من وصف الصياد إلى وصف القوس مثلا يقول :

مُطِلاًّ بِزرْقٍ ما يُدَاوَى رَمِيُّها وصفراءَ من نَبْعٍ عليها الجلائز
تخيَّرها القواس من فرع ضَالَةٍ لها شَذبٌ من دونها وحواجز[3] إلخ

---

(١) الديوان : ٥/٨ . (٢) الديوان : ١/١٦ .

(٣) انظر أبياته فى القوس : ص ١٩٦ من هذا الكتاب .

ثم ينساق مع هذه القوس مفتنناً فى وصفها ، وقص أمرها مذ كانت غصناً إلى أن رزئ بها الوحش على يدى الصياد ، حتى ليخاله القارئ قد نسى موضوع الصياد وما سبقه من وصف الخمر .

ومهما قيل فى إبداع الشاعر ، وحسن استخدامه لهذا النوع من التشبيه ، فإن الإكثار منه قد أضر بالبناء الفنى للقصيدة ، حيث أضعف الترابط بين أجزائها ، وجعلها تبدو وكأنها موضوعات مستقلة لا التحام بينهما[١] .

والتعبير بهذا الأسلوب ظاهرة شائعة فى الوصف الجاهلى بعامة ، نراه فى شعر : أوس بن حجر ، والنابغة الذبيانى ، وزهير ، ولبيد . . . وغيرهم ، إلا أنهم لم يفرطوا فى استخدامه إفراط الشماخ ، ولعل ذلك راجع إلى مذهبه فى الارتجال الذى أشرنا إليه فيما سبق .

ويعلل بعض الباحثين شيوع التشبيه الاستطرادى فى الوصف عند الجاهليين بقوله : « لا شك أن هذا التشبيه متأثر بطبيعة العقلية البدائية التى لا ضابط منطقياً لها ، ومتأثر أيضاً بواقع المجتمع والحياة الجاهليين ، اللذين لا استقرار أو تكامل فيهما ، كما أنه تكرس بواقع التقليد فى القصيدة الجاهلية . . »[٢] .

وقد يكون فى هذا القول شىء من الإسراف والتجنى على الشعر الجاهلى ، والعقلية الجاهلية ؛ فلم يكن المجتمع الجاهلى ، والعقلية الجاهلية بدائيين — كما يفهم من هذا التعبير — كذلك لم تكن العقلية الجاهلية بعيدة عن الضوابط المنطقية فى تفكيرها ونتاجها ، ويعلل أستاذنا عمر الدسوقى ما يلاحظ على القصيدة الجاهلية من ضعف الترابط بين أجزائها ، وانطباعها بطابع البساطة والتفكك ، بأن ذلك لا يرجع إلى أن العقلية الجاهلية كانت بدائية ، بعيدة عن الضوابط المنطقية فى تفكيرها ، وإنما يرجع إلى تلك المراحل الطبيعية التى كان الشاعر الجاهلى يخضع لها فى بناء قصيدته[٣] متأثراً ببيئته الصحراوية ، ومن ثم ، تعددت عناصر القصيدة ، وجاءت

---

(١) راجع : ص ٤٩—٥٠ من هذا الكتاب وانظر مراجعها فى الهامش ، وانظر أيضاً : التفسير النفسى للأدب : ٩٤ — ٩٥ ، وفى تفصيل ما ذهبنا إليه انظر : فن الوصف (إيليا حاوى) : ١ / ٨٢ وما بعدها.

(٢) فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/٨٢ .

(٣) انظر هذه المراحل فى : النابغة الذبيانى : ص ٥٢ .

على صورة فترات شعورية متقطعة . تجمع بينها وحدة فكرية فى عقل الشاعر[١] .

٢ — الإسراف فى استخدام التشبيه الحسى المباشر . كوسيلة من وسائل التعبير عن المعنى وتجسيمه ، حتى كثرت فى وصفه تلك النقوش المادية كثرة مفرطة ، نزعت به إليها عناية شديدة بالتفاصيل والجزئيات . وتقصّى الملاحظات ، والتدقيق بها ، والإلمام بأدق الملامح ، وأتفه المظاهر فى الموصوف ، حرصاً على إبراز صورته كاملة . والأمثلة على هذا الأسلوب فى الوصف كثيرة فيما قدمناه من شعره ، وهى أكثر شيوعاً فى وصفه للناقة والحمر .

وقد يبلغ به هذا الإسراف ، والحرص على كشف المعنى وإبرازه ، إلى حد أن يحشد أكثر من تشبيه فى البيت الواحد . كقوله فى التعبير عن شدة الظلام فى الصحراء ليلا :

بليلٍ كلون السَّاجِ أَسْوَدَ مظلمٍ قليل الوَغَى داجٍ كلوْنِ اليَرَنْدَج[٢]

والحق . أن هذا اللون من التصوير الحسى المباشر ، يكاد يطبع الوصف الجاهلى كله بميسمه ، لا يختص به شاعر دون غيره . إلا أنه أكثر شيوعاً وإسرافاً عند شعراء البادية ، وذلك لفرط دقة الملاحظة عندهم ، وميلهم الشديد إلى الاستقصاء ، وتتبع الجزئيات ، متأثرين فى ذلك بواقع نفسيّتهم التى تقتصر حدود عالمها على حدود العالم المادى .

ولم يكن هذا التشبيه الحسى المباشر وسيلة الشماخ دائماً فى تصوير المعنى وتجسيده ، فكثيراً ما كان يصور المعنى تصويراً حسيًّا من طريق الحقيقة ، كقوله يصف سرعة ناقته لخوفها من السوط :

وتقسِم طرْفَ العيْن شَطْرًا أمامها وشَطْرًا تراه خشية السَّوْطِ أَحْزَرا[٣]

وقوله يصف شخصاً بالمروءة لقيامه على خدمة إخوانه فى السفر :

وأَشْعَثَ قد قَدَّ السِّفَارُ قميصَه وجَرُّ الشِّواءِ بالعصا غير مُنْضَج[٤]

---

(١) المصدر السابق : ٥٣ وفيه زيادة تفصيل .
(٢) الديوان : ١٩/٢ .
(٣) الديوان : ٢٣/٥ .
(٤) الديوان : ٢٣/٢ .

فانظر كيف صور هذا المعنى فى تلك الصورة البدوية الحسية تصويراً واقعيًّا .

وقوله يصف رسوماً دارسة :

عَفَتْ غير آثار الأَرَاجيل تَرْتَمى تَقَعْقَعُ فى الآباط منها وِفَاضُها (١)

والذى يعنينا هنا هو تصويره للنبّالة ، ذلك التصوير الدقيق الذى يبرز لنا صورة هؤلاء النبالة ، وكأننا نراهم رأى العين ، وكان قدامة بن جعفر شديد الإعجاب بهذه الصورة ؛ لما فيها من الدقة فى إبراز الموصوف ، فهو يقول معلقاً على البيت : « . . . فقد أتى فى هذا البيت بذكر الرجالة ، وبين أفعالها ، بقوله : "ترتمى" ومن الحال فى مقدار سيرها بوصفه " تقعقع الوفاض " . إذ كان فى ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب السير ، ودل أيضاً على الموضع الذى حملت فيه هذه الرجالة الوفاض (وهى أوعية السهام) حيث قال : فى الآباط ، فاستوعب أكثر هيئات النبالة ، وأتى من صفاتها بأولاها ، وأظهرها عليها وحكاها ، حتى كأن سامع قوله يراها »(٢) .

والشماخ فى وصفه الحسى لمظاهر الأشياء وطبائعها يمتاز بالدقة ، والإيجاز ، حتى ليكاد يعطيك صورة واضحة لما يتعاطاه فى البيت أو البيتين أو الأبيات القليلة .

خذ مثلا قوله يصف صوت الريح المترددة فى جنبات الصحراء :

كأَنَّ هَزِيزَ الرِّيح بين فُرُوجه عَوَازِفُ جنٍّ زُرْنَ جنًّا بجَيْهَما (٣)

أرأيت كيف صور رهبة الصحراء ووحشتها . من خلال هذه الصورة لصوت الريح المتردد فى أرجائها .

ألا تقذف هذه الصورة الرعب فى القلوب ، من هول هذه الصحراء الموحشة ؟ !

ألست تراه معى بارعاً فى انتقاء الألفاظ التى تحكى صوت هذه الريح حتى كأننا نسمعه ؟!

فانظر إلى قوله : « هزيز » وقوله : « عوازف » ثم هذه الجيمات المتكررة التى تضفى على الصورة قوة وروعة .

---

(١) الديوان : ٢/٩ .
(٢) نقد الشعر : ١١٨ – ١١٩ .
(٣) ملحق الديوان : ٤٤ .

ونرجع إلى قوله السابق فى وصف ليل الصحراء فنحس مثل هذا الإحساس ، ونلمس مثل هذه البراعة فى التعبير .

وقد مر بنا نموذج آخر لهذا الإيجاز ، مع إبراز صورة كاملة للموصوف فى وصفه للنبالة ، ومن ذلك صورة الأشعث السابقة .

وقوله يصف انبثاق الصبح وسط ظلام الليل :

إذا ما الصبحُ شَقَّ الليل عنه أَشَقَّ كمَفْرِق الرأس الدَّهين[1]

وليس ثمة أدق ، ولا أبدع من تصوير هيئة هذا الصبح ولونه وظلام الليل يمتد على جانبيه فى هذا الإيجاز .

ولا ينبغى أن يخدعنا هذا كله ، فنظن أن خيال الشماخ فى الوصف كان لاصقاً بحسه مقيداً به ، يحبو معه ، ويتزاحف حواليه ، فقد رأينا له كثيراً من الصور التى تولاها بوجدانه . ونشط فيها خياله من وراء حسه ، فأبدع وحلق ، وتجلت شخصيته الفنية فى أوج عظمتها . وقد مرت بنا أمثلة كثيرة على ذلك فى وصفه : للحمر الوحشية[2] ، والقوس[3] ، وولد الظبية[4] لا نجد موجباً لتكرارها هنا .

٣ — التردد على المعانى والحوادث ، وتقليبها فى شتى الصور والتشابيه ، إمعاناً فى استيفائها ، وإبراز جوانبها المتعددة ، وتظهر هذه النزعة بوضوح فى وصفه للحمر الوحشية والناقة والصياد .

من ذلك قوله يصف ظمأ الأتن . وورود العير بهن :

فلمَّا أن رأى القُريانَ هاجتْ ظواهرُها ولاحتْـــه الحَرُورُ
وأَحْنق صُلْبَه وطَوَى مِعَاهُ وكَشْحَيْه كما طُوى الحصير
دعاهُ مُشْرَبٌ من ذِى أَبَانٍ حِسَاءٌ بالأَباطح أَو غدير
فظلَّ بهن يحدُوهنَّ . قصدًا كما يَحْدُو قلائصه الأَجيرُ[5]

---

(١) الديوان : ١٨/٢٢ .
(٢) راجع : ص ١٧٠ — ١٧٩ من هذا الكتاب .
(٣) راجع : ص ١٩٦ — ٢٠١ من هذا الكتاب .
(٤) راجع : ص ٢٠٣ من هذا الكتاب .
(٥) الديوان : ٦/١٢ — ١٥ .

فهذا العير حين أدركه القيظ ، وأهزله جفاف المرعى ، واشتد به الظمأ ، ساق أتنه سوقاً عنيفاً ليرد بهن ماء « بذى أبان » .

نراه يردد هذه المعانى فى قوله :

تَربَّع مَيْثَ النِّير حتى تطالعتْ ... نجومُ الثُّريا واستقلت عَبُورها
فلمَّا فنَى الأَسمالُ غاصَتْ وقلَّصتْ ... ثمائلُها وتابَعَ الشمسَ صُوُرها
فظلَّ على الأَشرافِ يقسمُ أَمرَه ... أَينظر جُنْح الليل أَم يستثيرها
فأَزمعَ من عيْن الأَراكة مَوْردًا ... له غارةٌ لفَّاءُ صاف غديرُها
فصاحَ بقُبٍّ كالمَقَالى يُشِلُّها ... كما شَلَّ أَجمالَ المُصَلِّى أَجيرُها (١)

وأحسبنى لست بحاجة إلى بيان ما فى هذه الأبيات من زيادة توضيح وتفصيل للمعانى ، التى تضمنّها الأبيات السابقة .

وهو يستوفى هذه المعانى والحوادث ويفصلها تفصيلا لا مزيد عليه فى قوله :

تربَّع أَكناف القَنَان فصارةٍ ... فَمَا وَان حتى قاظ. وهو زَهُوم
إلى أَن علاه القيظُ. واستنَّ حوله ... أَهَابىٌّ منها حاصِبٌ وسَمُوم
وأَعْوَزَهُ باقى النِّطَاف وقلَّصت ... ثمائلُها وفى الوجوه سُهُوم
وحلَّأَها حتى إذا تمَّ ظِمْؤُها ... وقد كاد لا يَبْقَى لهن شحُوم
فظلَّ سَراة اليوم يقسم أَمره ... مُشِتٌّ عليه الأَمرُ أَيْن يروم ؟
. . . . . .
إلى أَن أَجَنَّ الليلُ وانقضَّ قارباً ... عليهن جيَّاش الجِرَاءِ أَزُوم
وكمَّشها ثَبْتُ الحِضَار ملازمٌ ... لما ضاع من أَدْبارهن لَزُوم
فأَوردها ماءً بغَضْور آجِناً ... له عَرْمَضٌ كالغِسْل فيه طُمُوم (٢)

---

(١) الديوان : ٧/٢٤ — ٢٨ .

(٢) الديوان : ١٦/٣ — ٧ و١٢ — ١٤ .

وقد مر بنا تحليل هذه الأبيات الأخيرة[١]، ومنه يتضح ما ذكرنا .

وأنت تستطيع أن ترجع إلى دراستنا السابقة لوصف الناقة ، والصياد ، والحمر ، وهناك ستجدنا قد نبهنا إلى هذا الاتجاه ، وعززناه بالأمثلة الكثيرة ، التى لا داعى للإطالة بذكرها هنا .

٤ ــ وهناك ظاهرة تتردد كثيراً فى معظم موضوعات وصفه تقريباً ، ونعنى بها : الوصف باعتماد النعوت الحسية ، سواء منها النعوت التى يكنى بها عن المنعوت ، أو النعوت العامة .

فهو كثيراً ما يعبر عن حمار الوحش بأوصاف من مثل : جأب . أحقب ، أقب ، مشحاج . مطرد . . . إلخ . وعن الناقة بمثل : جمالية . مبراة . صفراء . دوسرة . حرف . ذعلبة . . . إلخ .

ويجد القارئ لوصفه كثيراً من هذه النعوت الحسية التى كثيراً ما تتكرر فى البيت الواحد كقوله فى صفة حمار الوحش :

مَحْصُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا خَاظِى المَطَا صَحِلٌ يردِّد خلفها التَّنْهاقا[٢]

وقوله :

قَطُوفٌ شَحُوجٌ باليَفَاع كأنه لِمَا رَدَّ لَحْيَاهُ السَّحِيلَ خنيق
دؤُولٌ إذا ما اسْتَاف منها مَصَامَةً له من ثَرَى أَبْوَالهن نشيق[٣]

وقوله صفة الناقة :

غَلْبَاءُ رَكْبَاءُ عُلْكُومٌ مُذكَّرةٌ لِدَفِّها صَفْصَفٌ قُدَّامُها مِيلُ[٤]

وقوله :

سل الهمومَ التى باتت مُؤرِّقةً بجَسْرةٍ كعَلَاة القَيْن شِملال
علْياء نضَّاخة الذِّفْرى مذكرة عَيْرانة مثل قوْس الفِلْقَةِ الضَّال[٥]

---

(١) انظر : ص ١٧٧ — ١٧٩ من هذا الكتاب .
(٢) الديوان : ١٣/٢٦ .
(٣) الديوان : ١١/٢٣ — ٢٤ .
(٤) الديوان : ١٤/٥ .
(٥) ملحق الديوان : ٤٠/١ — ٢ .

انظر كيف يقتصر تشخيصه فى هذه الأبيات على النعوت الحسية .

وقوله يصف إبلا فى رجز له :

ناجٍ على قلائص عُلْويَّات
يهوى على شَرَاجع عَليَّات
مَلَاطِس الأَخْفاف أَفْتَلِيَّات (١)

وقوله فى صفة العقاب يشبه بها الأتن :

كأَن متونَهن مولِّياتٍ عِصِيٌّ جَناح طالبةٍ لَمُوع (٢)

وقوله فى صفة سهم قذف به صياد أتاناً :

فأَهْوَى بمُنْتُوق الغِرَارَيْن مُرْهَف عليه لُوَأَمُ الرِّيش فَهْو قَتُوم (٣)

وقوله يصف الصحراء :

ودوِّيَّة تيهـاءَ قفْر مَرَادُها مَرُوتٍ يُكِلُّ العِيسَ فيها ارتكاضُها (٤)

وقوله يصف ظبية يشبه بها ناقته :

فبعثتُ هُلْواع الرَّواح كأَنها خَنْساءُ تَتْبع نائياً مِخْراقا
سَفْعَاء وقَّفَها السَّوادُ تَرى لها زَمَعاً وصَلْن شَوًى لهن دقاقَا (٥)

وقوله يصف الظليم والنعامة ، مشبهاً ناقته بهما فى السرعة :

يدا مهاة ، ورجلا خاضِب سَنِقٍ كأَنه من جَنَاهُ الشَّرْىَ مَخْلُول
هَيْقٌ هِزَفٌّ وزَفَّانِيةٌ مَرَطى زَعْراءُ ريشُ ذُنَاباها هراميل (٦)

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وما ذكرنا إلا نماذج ، قصدنا بها أن نشير إلى أن هذا الأسلوب شائع فى وصفه لمختلف الموضوعات .

ونحن لا نجهل أن كثيراً من الشعراء القدامى كانوا يستخدمون هذه النعوت

---

(١) أراجيز الديوان : ١٩/٢٢ – ٢١ .
(٢) الديوان : ٢٩/١٠ .
(٣) الديوان : ١٨/١٦ .
(٤) الديوان : ٤/٩ .
(٥) الديوان : ١٣/ ١٣ – ١٤ .
(٦) الديوان : ١٦/١٤ – ١٧ .

الحسية فى أوصافهم ، ولكنا نزعم أن الشماخ فاقهم فى الإسراف بها . .

وأحسب أن النزعة المادية التى أشرنا إليها فيما مر ، والتى هى فى الواقع أثر من آثار البيئة . بالإضافة إلى الإطار الثقافى للشاعر . هما مرجع هذه الظاهرة فى أسلوب وصفه .

هذا ، ولا يفوتنا فى ختام الكلام على أسلوب الشماخ ومذهبه فى الوصف أن نؤكد ما سبق أن أشرنا إليه[١] من أن الشماخ فى كثير من قصائده يقصد إلى الوصف قصداً . حتى ليكاد يقصر عليه بعض قصائده[٢] . وهو بهذا يخالف أسلوب القصيدة الجاهلية . التى لم يكن الشاعر يتصدى فيها للوصف مباشرة ، ويخصه بقصيدة مستقلة ، بل كان يعرض له من خلال قصائد المدح وما إليه .

وبعد :

فهذا هو فن الشماخ فى الوصف . فإن كنا قد وفقنا فى فهمه وتذوقه ودراسته فهو القصد والأمل . وإن كانت الأخرى ، فعذرنا بذل الجهد ما وسعت الطاقة ، وفوق كل ذى علم عليم .

(ب) النسيب[٣]

نعنى بالنسيب هنا ذلك الضرب من الشعر الذى يصدر به شاعرنا قصائده ، ويتحدث فيه عن حبيبته ، وما يتصل بها . من وصف ما يروقه منها ، وما يعانيه قلبه فى حبها ، وتصرف أحوال الهوى بهما ، وما ينتابه من اللوعة والأسى لفراقها ، والتحدث عما يهيج فى قلبه ذكراها . ويحرك الشوق والحنين إليها . مما رحلت عنه وخلفته وراءها : من الرسوم الدارسة . والأطلال الداثرة ، وآثار الديار العافية . . ونحو ذلك مما يحركه فى نفسه الحديث عنها .

---

(١) راجع : ص ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر مثلا : القصائد : ١ ، ٨ ، ١٤ ، ١٦ من الديوان .

(٣) للعلماء القدامى والمحدثين أقوال فيما يراد بالنسيب والتشبيب والتغزل ، فمنهم من يذهب إلى أنها بمعنى واحد ، ويفرق بينها وبين الغزل ، ومنهم من فرق بين الغزل والنسيب والتشبيب انظر فى ذلك : العمدة : ٢/٩٤ ، ونقد الشعر : ١٢٣ ، والأدب العربى وتاريخه (هاشم عطية) : ١٠٧ .

والشماخ – كغيره من شعراء البادية – يبدأ أكثر نسيبه بذكر ديار الأحبة التى أقفرت بعدهم والوقوف عليها ، ووصف رسومها وأطلالها وآثارها ، وقد يبكى لما أصابها من تبدل وتحول ، حيث لم يبق منها إلا رسوم تلوح ولكنها بالية ، وأطلال تشخص ، ولكنها داثرة ، تسفيها الرياح العاصفة وتعفى معالمها السيول الجارفة ، وقد مر بنا حديثه عن هذه الديار والآثار فى الوصف ، وما رأيناه فيه فلا نطيل بإعادته هنا .

وقد يبدأ حديثه عن الحبيبة بذكر رحيلها ، وما أصاب قلبه عند ظعنها ، وبعد ما بينه وبينها ، محاولا أن يعزى قلبه عن فراقها ، مستمداً هذا العزاء من ظروف بيئته ، تلك البيئة الصحراوية التى تضطرب حياة قاطنيها بين الحل والرحيل ، فقلما يدوم فيها اجتماع الشمل [1] مؤملا أن يؤدى به الصبر على فراقها إلى ارعواء قلبه عن الحنين إليها ، ولكن هذا القلب يأبى عليه الصبر ، فهو لا يزال متعلقاً بها ، حانًّا إليها على بعد ديارها ، وذلك قوله :

أَلا ناديا أَظعانَ ليْلى تعرَّجُ ... فقد هجْن شوقاً ليته لم يُهيَّج
أَقول وأَهلى بالجِنَاب وأَهلُها ... بنجديْن : لا تبعد نَوَى أُمِّ حَشْرج
وقد ينتْى من قد يطول اجتماعُه ... ويَخْلجُ أَشطانَ النوى كلَّ مَخْلَج
وقد ينتهى الشوقُ النزيعُ ويَرعوى ... فؤادُ الفتى بالحِلْم بعد التَّعَوُّج
صبا صبْوةً من ذى بِحَارٍ فجاوزتْ ... إلى آل ليْلى بطنَ غَوْلٍ فَمَنْعَج [2]

وقد يتابع بنظره رحلة صاحبته ، على ما بينهما من بون شاسع ، فلا يرى إلا ما أوقده قومها من النيران بأعلى جبل بعيد ، وإذ ذاك تنبعث لواعج الشوق فى نفسه ، وتهيج كوامن الصبابة فى قلبه ، ويغشّى الهم على بصره ، فلما لم يعد يسعفه دعا صاحبيه لينظرا معه ، فقد يكونا أبعد وأحدّ منه بصراً ، وذلك قوله :

نظرت وسهْبٌ من بُوَانة بيننا ... وأَفْيحُ من روض الرَّباب عميق
إلى ظُعُنٍ هاجت على صبابةً ... لهن بأَعلى القُرْنتَيْن حريق

---

(١) راجع : ص ٣٢ من هذا البحث .
(٢) الديوان : ١/٢ – ٤ ؛ والبيت الرابع من هذه الأبيات من زياداتنا فى الهامش .

فقلت : خليليّ انظرا اليومَ نظرةً لعَهْد الصِّبَا إذْ كنتُ لستُ أفيق[١]

ونراه حيناً يتوقع البين ؛ لما يرى من تأهب صاحبته للرحيل ، فيتصدع قلبه المشوق إليها ، المظلوم فى حبها ؛ إذ لم تراع له حقًّا ولا حرمة ، فكم منته الأمانى ، وأعطته العهود والمواثيق . ولكنها لم تحقق له أملا ، ولم تصن له عهداً . وذلك قوله :

صدَعَ الظَّعائنُ قلبَه المشتاقا بحزيز رَامَةَ إذ أَرَدْن فِراقا
منَّيْنَه فكذبْن إذْ مَنَّينَه تلكَ العهودَ وخُنَّه الميثاقا[٢]

وقد تلوح له نيران حيها عن بعد ، يتلألأ سناها حيناً تلألؤ النجم الزاهى ، ويخفت حيناً آخر حتى يكاد لا يراه إلا حديد البصر ، يحدثنا بذلك فى قوله :

رأَيتُ وقد أَتى نجرانُ دونى وليْلى دون أَرْحُلها السَّدِير
لليْلى بالغُمَيِّم ضوءَ نار يلوحُ كأَنَّه الشِّعْرى العبُور
إذا ما قلتُ خابيةٌ زهاها سوادُ الليل والريحُ الدَّبُور
فما كادتْ ولو رَفَعُوا سَنَاها ليُبْصر ضوءها إلا البصير[٣]

ويلمع البرق عن بعد فيذكره هوى الحبيبة ، فينطبق الحزن على قلبه ، ويبيت ليلته مؤرقاً مهموماً ، كأنما يرى فى البرق حبيبته ، فإذا قلبه شديد الاضطراب كثير الخفقان . وفى ذلك يقول :

رأَيتُ سنَا برْقٍ فقلتُ لصاحبى بعيدٌ بفلجٍ ما رأَيت سحيق
فبات مُهِمًّا لى يذكِّرنى الهوى كأَنى لبرق بالحجاز صديق
وبات فؤادى مستخِفًّا كأَنه خَوَافى عُقابٍ بالجناح خَفُوق[٤]

وطبيعى — وحكم الفراق جار فى بيئة شاعرنا كما ذكرنا قبل — أن يتعرف الشماخ خلال رحلاته وتنقلاته العديدة على أكثر من واحدة ، فكلما فارقته إحداهن ، نبابه المقام فى البقعة التى شهدت ذكرياته معها ، وغدت تثير غمه ، وكآبة نفسه

(١) الديوان : ١/١١ — ٣ .
(٢) الديوان : ١/١٣ — ٢ .
(٣) الديوان : ١/٦ — ٤ .
(٤) الديوان : ٢٦/١١ — ٢٨ .

فلا يلبث أن يمتطى ناقته ، مخلفاً وراءه هذه الديار الموحشة ، نازحاً إلى غيرها ينشد السلوى ، ويسلى عن نفسه الهم ، وقد تجمعه ظروف الحياة بأخرى ، يرى فيها منية للنفس ، وبعثاً للأمل ، فيتودد إليها ، ويروح يخطب ودها ، ثم يؤذن مؤذن الفراق من جديد ، فيعود ينشد السلوى ، ويسلى الهم ، ويركب الناقة ، ومن هنا نجده كثيراً ما يقفّى حديثه عن فراق الحبيبة بمثل قوله :

هل تسلينك عنها اليوم إذ شَحَطَتْ عَيْرانةٌ ذات إرقال وإعناق[1]

وقوله :

ولست إذا الهمومُ تحَضَّرتْنى بأَخْضَعَ فى الحوادث مستكين
فسلِّ الهمَّ عنك بذات لَوْثٍ عُذَافِرة كمِطْرقة القُيُون[2]

ومن هنا أيضاً تعددت فى نسيبه أسماء النساء اللائى عرفهن خلال رحلته فى الحياة ، فذكر : ليلى — وسماها أحياناً « بأم بيضاء » — والميلاء ، وأسماء ، وأروى ، والرباب ، وسليمى ، وسعاد ، ومن دعاها « بابنة الراقى » ، وأخرى ذكر أنها « ابنة الضمرى » وامرأة تدعى : « كلبة بنت جوال » روى أبو الفرج[3] أن الشماخ كان يحبها ، ويقول فيها الشعر ، ولكنه لم يصرح بذكرها فيما لدينا من شعره إلا فى بيت واحد[4] ، ولعلها المعنية بأحد الأسماء السابقة .

وهذه الأسماء قد تكون مستعارة[5] ، فمعظمها كان مما يجرى على ألسنة الشعراء ويرددونه فى أشعارهم ؛ إذ كانوا — فيما يبدو — لا يحبون أن تذيع أسماء صاحباتهم الحقيقية ، ويعرفها الناس ؛ فقد كانت تقاليد مجتمعهم تعتبر ذلك فضيحة ، وعاراً يلحق الفتاة وأهلها .

وربما كانت هذه الأسماء لا تعنى أيضاً تعدد صاحباته بقدرها . على أنه مهما قيل من ذلك ، فهى على الأقل تدل على أنه أحب أكثر من واحدة ، وخصهن بالحديث فى هذا اللون من شعره .

---

(١) الديوان : ١٤/٤ .
(٢) الديوان : ١٨/٦ — ٧ . وانظر : ص ١٨٤ — ١٨٥ من هذا الكتاب .
(٣) الأغانى : ٨/١٠٠ وانظر . ص ٩٩ — ١٠٠ من هذا الكتاب .
(٤) ملحق الديوان : ٣٨ . (٥) راجع : ص ١٠١ من هذا الكتاب .

والشماخ يحدثنا فى نسيبه عن أوصاف ست من صاحباته وهن : ليلى ، والميلاء ، وأسماء ، وسعاد ، وابنة الراقى . وأخرى مجهولة .

أما ليلى[١] : فهى صافية اللون ، طويلة العنق ، ضامرة الخصر ، بضة الأطراف ، ريقها بارد ، وأسنانها ناصعة البياض ، صغيرة مفلجة ، ذات خفر وحياء ، تضمخ يديها وثيابها بالزعفران ، وتزين ذراعها بالوشم ، وجبينها كامل النضارة ، رقيقة ، مرهفة حتى إنها لتتجافى عن ودع وشاحها خشية أن يؤذيها برده ، وهى إلى ذلك حسيبة تنتسب إلى كنانة . بل هى من أوسط قومها نسباً ، وأرفعهم محلا ، كما أنها منعمة لا تهتم بخدمة نفسها لأنها مخدومة .

وأما الميلاء[٢] : فهى كحيلة العينين ، فاترة الطرف ، أسنانها ناصعة البياض مفلجة . ولثاتها سمراء ، وأظافرها بيضاء لامعة ، ويدها موشومة بيضاء صافيه البياض وجمالها جذاب ، يشد العيون إليها ، حوّاء الشفتين — وهى أيضاً ذات حسب ، كنانية كصاحبته « ليلى » طيبة النشر ، وإن لم تتطيب ، مترفة تعيش فى رفاهية ، فهى توقد اليلنجوج فى الشتاء لتتبخر به .

وأما أسماء[٣] : فيصف محاسنها فى بيتين اثنين فيقول : إن فمها حلو المذاق ، بارد الريق ، لامع الأسنان ، ووجهها مكتمل الجمال والبهاء ، وجمالها فتان .

ووصف كلا من « سعاد » و « ابنة الراقى » فى بيت واحد .

فيقول عن « سعاد »[٤] : إنها بيضاء ، تعجب جيرانها بطلعتها البهية ، حسنة الخُلُق لا تتحدث عن أحد بما يؤذى .

ويقول عن « ابنة الراقى »[٥] : إن شعرها غزير طويل لامع منسدل على متنيها .

ويقول عن إحدى حبيباته دون أن يصرح باسم لها أوكنية[٦] : إن عنقها

---

(١) انظر الأبيات فى الديوان : ٢/٥ — ١٢ مع بيت زائد فى الهامش عقب شرح البيت (٣) .
(٢) انظر الأبيات فى الديوان : ٧/٧ — ١٤ مع بيت زائد فى الهامش عقب شرح البيت (١٤) .
(٣) انظر البيتين فى الديوان : ٧/١٣ — ٨ .
(٤) الديوان : ١/١٤ .
(٥) الديوان : ٢/١٢ .
(٦) الديوان : ٢/٤ — ٤ .

طويل، مكتمل الخَلْق، وجيدها تام الجمال، لا يحتاج إلى حلى يزينه، وشعرها أسود غزير كثير الخصل، يبدو عليها حسن النعمة، وتمام الرفاهية.

ولكى نستكمل صورة المحاسن التى كانت تعجب الشماخ فى المرأة، يحسن أن نعرض لما ذكره من أوصاف لبعض النسوة، اللائى تحدث عنهن فى غير نسيبه.

يقول فى إحداهن:

من البيض أعطافاً إذا اتَّصلتْ دعتْ ... فِرَاسَ بن غَنْم أَولَقِيطَ بن يَعْمُرا

بها شَرَقٌ من زَعْفَران وعَنْبرٍ ... أطارتْ من الحسن الرداءَ المُحَبَّرا[1]

فهى عفيفة، شريفة النسب، منعمة تتخذ طيبها من أحسن الأنواع. وهى — مع عفتها — مدلة بجمالها، لا تريد أن تحجبه عن العيون، ابتهاجاً بجمال وجهها ورأسها.

ويصف امرأة مع صاحبات لها[2] فى رجز له فيقول:

قامت تبدى لى بأَصْلَتيَّات
غُرٍّ أَضاءَ ظَلْمها الثَّنيّاتْ
خَوْدٌ من الظعائن الضَّمْريات
حلاَّلة الأَودية الغوْريَّاتْ
صَفِيٌّ أَتراب لها حَييَّاتْ
مثل الأَشاءات أَو البَرْديَّاتْ
أَو الغمامات أَو الودِيَّاتْ
أَو كظباء السِّدر العُبْريّاتْ
يصِفْن بالقيظ على ركيَّاتْ

---

(١) الديوان: ١٥/١٩ — ٢٠.

(٢) يقول الشماخ هذا الرجز، معرضاً بامرأة جندب بن عمرو، المذكور فى مقدمة أراجيز الديوان، والذى كان يعرض بامرأة الشماخ ويتحدث إليها فهو من قبيل النسيب الكيدى لا الحقيقى (راجع: مقدمة أراجيز الديوان ومقدمة الأرجوزة: ٢٢).

من الكُلَى فى خُسُفٍ رَوِيَّاتْ
وضَعْنَ أَنْمَاطاً على زَرْبياتْ
ثم قعدْن برْكة النجيَّاتْ[١]

فأسنانها براقة واضحة ، شديدة الصفاء ، وهى شابة ناعمة ، كما أنها واحدة من نسوة نسيبات ، محبوبة إلى لداتها ، فهن يصافينها الود ، وهى ولداتها تزدان أخلاقهن بالحياء ، صغيرات غضات فى حركاتهن تثن ودلال ، طويلات العنق ، منعمات مترفات ، يقمن زمن الصيف على آبار ماؤها كثير لا ينقطع ، لا يعملن شيئاً إلا الجلوس على البسط والطنافس ، يتحادثن ويتسارون .

ويقول عن أخرى (ولعلها كانت زوجة له) :

ولو أَنى أَشاء كنَنْتُ نفسى إلى لَبَّاتِ بَهْكَنةٍ شَمُوع
تلاعبنى إذا ما شئت خَوْدٌ على الأَنْماط ذات حَشًى قطيع
كأَن الزعفران بمعصميْها وباللَّبَّات نَضْجُ دمٍ نَجيع[٢]

فهى شابة ، خفيفة الروح ، حسنة الدعابة ، طيبة الرائحة ، غضة حلوة ، مزاحة ، عروب دمثة الحديث .

هذه هى المحاسن التى كانت ترونق الشماخ فى المرأة ، وهى فى مجموعها صفات نموذجية تصور المثل الأعلى للجمال فى المجتمع البدوى ، وقد خلعها من قبله شعراء البادية على حبيباتهم وتداولها الشعراء حتى نكاد لا نلمس اختلافاً بين هؤلاء الشعراء فيها إلا من حيث التصوير لهذه المحاسن ، والتعبير عنها .

ونستطيع أن نرجع — مثلا — إلى وصف طرفة لصاحباته : خوله[٣] ، وهر[٤] ، وليلى[٥] ، وسلمى[٦] فتطالعنا هذه الصفات التى خلعها الشماخ على صاحباته :

---

(١) الأرجوزة : ١/٢٢ — ١٣ .
(٢) الديوان : ٨/١٠ — ١٠ .
(٣) انظر : ديوان طرفة : الأبيات : ٢٨ — ٣٢ و ٢٩٠ و ٣٤٥ - ٣٤٩ .
(٤) ديوان طرفة : الأبيات : ١٣٥ — ١٥٣ .
(٥) ديوان طرفة : الأبيات : ٢١١ — ٢١٣ .
(٦) ديوان طرفة : الأبيات : ٣٢١ ، ٤٨٢ — ٤٨٣ ، وانظر دراسة الغزل فى شعر طرفة الملحقة بالديوان ص : ٢٥٣ — ٢٥٥ .

ليلى ، والميلاء ، وأسماء . . . . كما أننا سنجد نفس الظاهرة التى نلاحظها هنا فى وصف الشماخ للمرأة ، ونعنى بها هذا الاهتمام بتصوير محاسنها الخلقية ، تصويراً حسيًّا يكاد لا يترك جزءاً من جسمها دون أن يعطينا صورته المثلى ، التى يحبون أن يكون عليها فى الجمال .

ومع ذلك ، يبقى للشماخ فضل الجمال فى التصور والتصوير ، فعلى الرغم من تشابه الصفات التى خلعها على كل من صاحباته ، إلا أن مقدرته الفنية فى الوصف أتاحت له لوناً من التحوير ، والتنويع فى الصور ، جعلها تكاد يختلف بعضها عن بعض .

انظر مثلا إلى قوله يصف أسنان صاحبته « ليلى » وريقها :

تُميحُ بمسواك الأَراك بنانَها رضابَ النَّدى عن أُقْحوان مُفَلَّجِ

وقوله يصف أسنان صاحبته « الميلاء » :

لها أُقحوانٌ قيَّدتْه بإثمد يدٌ ذاتُ أَصدافٍ يُمَارُ نَؤورها

وقوله يصف ثغر صاحبته « أسماء » وما فيه من الأسنان والريق :

وتعرَّضتْ فأَرتْك يوم رحيلها عَذْبَ المَذَاقَةِ باردًا برَّاقا

أرأيت كيف عبر عن نفس المعانى فى صور مختلفة ؟!

ومع ذلك فقد تجاوز الشماخ — أحياناً — وصف محاسن المرأة الجسدية إلى الثناء على بعض صفاتها الخُلقية . فهو يقول فى « ليلى » :

وإن مرَّ من تخْشى اتَّقتْه بمِعْصَمٍ وسبٍّ بنضْح الزعفران مُضَرَّج

وترفعُ جلْباباً بعبْل مُوَشَّمٍ يَكُنُّ جبيناً كان غَيْر مُشَجَّج

فهو يريد من وراء هذه الصورة الحسية ، وتلك الأوصاف الجسدية ، أن يثنى على خلق صاحبته ؛ لما تتسم به من الحياء والعفة البالغين ، حتى إنها لتتقى من تخشى نظراته الجريئة بيدها وخمارها وجلبابها .

ويبدو أن العفة والحياء خلق أحبه الشماخ فى المرأة ، فهو لا يفتأ يصفها به ، كقوله السابق فى إحدى النساء : « من البيض أعطافاً . . » وقوله فى رجزه السابق « صفى أتراب لها حييات » .

كذلك أثنى على صاحبته « سعاد » فوصفها بحسن الخلق ، وعفة اللسان فى قوله :

بيضاء لا يَجْتَوى الجيرانُ طلعتَها ولا يَسُلُّ بفيها سَيْفَه القِيلُ

وهذا شبيه بقول النابغة الذبيانى فى صاحبته « نُعم » :

بيضاءُ كالشمس وافتْ يوم أَسعدها لم تؤذِ أَهْلاً ولم تَفْحش على جار [١]

إلا أن النابغة يقرر الوصف عن طريق الحقيقة ، والشماخ يعبر عنه بالصورة ، فإن كان للنابغة فضل السبق إلى المعنى ، فللشماخ فضل إبرازه فى هذه الصورة المعبرة عن شناعة وقبح سلاطة اللسان .

أما عواطف المرأة ، وهمومها ، ورغباتها ، وتفكيرها ، فأمور لم يعن بالحديث عنها ، شأنه فى ذلك شأن أسلافه من الشعراء الجاهليين ، اللهم إلا ما كان من قوله فى صاحبته ليلى ، يصف ما أصابها من ألم فراقه غداة الرحيل :

وكادتْ غداة البيْن ينطقُ طَرْفُها بما تحت مَكْنُونٍ من الصدر مُشْرَجِ [٢]

وقوله على لسان إحدى صاحباته فى رجز له يصف لهفتها وخوفها عليه وهو مريض :

قالت : أَلا يُدْعَى لهذا عَرَّافْ
لم يبْقَ إلا مَنْطقٌ وأَطْرافْ
ورَيْطَتَان وقميصٌ هَفْهَافْ [٣]

ولكن أين يقع هذا من رسم عواطف الحبيبة ، وما يقع لها : من فرح وحزن ، ولهفة على اللقاء ، وخوف من الرقباء . . . إلى آخر هذا الاتجاه الذى اتضح وترعرع ، وأعلن عن نفسه فى شعر زعيم الغزلين عمر بن أبى ربيعة ، وكذلك العرْجى ، ومن لف لفهما من غزلى الحجاز فى العصر الأموى .

---

(١) انظر : النابغة الذبيانى : ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢) الديوان : ٢/١٦ .

(٣) أراجيز الديوان ، الأرجوزة : ١/٢١ — ٣ . يقول الشماخ هذا الرجز معرضاً بامرأة جندب ابن عمرو (انظر : الهامش رقم ٢ ص ٢٢٧ من هذا الكتاب) .

ولكننا لم نعرف بعد : هل كان الشماخ صادق الحب ، متيم القلب ؟

إن بعض شعره ليظهرنا على مدى تأثره بالحب ، فهو يرى الحب قدراً مقدوراً لا مفر للإنسان من الاكتواء بناره .

فيقول معتذراً عن انصرافه عن الأهل والأصحاب :

وإنِّى عَدَانِى عنكمُ – غيرَ ماقِتٍ نَوَارَان مكتوبٌ علىّ بُغَاهما [1]

إن سعيه وحرصه على وصل هاتين المرأتين النافرتين من وصله ، قدر مكتوب عليه ، شغله عمن يخاطبهم ، وقد أكد المعنى واستوفاه بقوله : « غير ماقت » فبهذا الاحتراس اللطيف يؤكد حبه لمخاطبيه ، ويؤكد فى نفس الوقت أن هناك قوة قاهرة تتحكم فى إرادته ، وتسيطر عليها ، وتدفعه دفعاً إلى الاشتغال بطلب وصل هاتين الحبيبتين والانصراف عن الأهل والأصحاب ، إنها بلاشك قوة الحب !!

كما يظهر من شعره فى النسيب أنه كان متيم القلب بحب من كان يدعوها « ليلى »[2] ، فقد ظل حبها لائطاً بقلبه ، حتى بعد أن تقدمت به السن ، فما يكاد يذكرها حتى تفيض دموعه . يشهد بذلك قوله :

أَقولُ وقد شُدَّتْ برحْلِى ناقتى ونَهْنَهْتُ دمعَ العيْن أَن يتحدَّرا
على أُمِّ بيْضاءَ السَّلام مضاعفاً عديدَ الحَصَى ما بينَ حمْص وشَيْزَرا
وقلتُ لها : يا أمَّ بيضاءَ إنه كذلك بيْنَا يُعرف المرءُ أُنكرا
تقول ابنتى : أَصبحت شيخاً ومن أَكن له لِدَةً يُصبحْ من الشيب أَوْجَرا [3]

وهو لا يزال كذلك مذ فارقته « ليلى » ، يستعيد ذكرياتها ، ويشكو بثه وحزنه لفراقها . فها هو ذا يصف حاله يوم فراقها ، ويعبر عن شعوره ، وآلام نفسه ، تعبيراً غير مباشر عن طريق الصورة ، التى يحاول فيها أن ينقل عدوى تلك الحالة النفسية التى كان يعانيها إلى نفس القارئ ، وذلك فى قوله بعد أن ذكر رحيلها :

لكنت إذًا كالمتَّقى رأس حيَّةٍ بحَاجَتها إن تُخْطئ النفسَ تُعْرِج [4]

---

(١) الديوان : ١٢/١٧ .
(٢) راجع : ص ١٠١ من هذا الكتاب .
(٣) الديوان : ٣/٥ – ٦ .
(٤) الديوان : ٢/ ٢٠ .

وقريب من هذا قوله وقد رأى ضوء نيران حيها عن بعد :

فبتُّ كأَنَّنى سافَهْتُ خمرًا معتَّقــةً حُمَيَّاها تَدُور[١]

ويمر على ديارها فتثور فى قلبه لواعج الشوق إليها ، فيذكر أيامها الحلوة — وهو يذوب أسًى ولوعة — تلك الأيام التى صفا فيها عيشه ، وسعد معها بالوصل قلبه :

لَيَالِيَ لَيْلى لم يُشَب عذبُ ابها بمِلْحٍ وحبْلَانا متينٌ قُواهما[٢]

ونكاد نلمس هذه العاطفة الملتاعة الحزينة فى كل شعره الذى يتحدث فيه عن « ليلى » تقريباً . على أننا نراه يشكو فراق غيرها من صاحباته الأخريات ، ولكننا لا نعثر فى شعره فيهن على تلك العاطفة الصادقة القوية التى تعلن عن نفسها فى حديثه عن « ليلى » .

خذ مثلا قوله فى « أسماء » :

يا أَسم قد خَبَلَ الفؤادَ مروِّحٌ من سِرِّ حُبِّك مُعْلِقٌ إعلاقا
فسلبْتِه مَعْقولَه أَم لمْ ترىْ قلباً سلا بعد الهوى فأَفاقا ؟
عزم التجلُّدَ عن حبيبٍ إذْ سلا عنه فأَصبح ما يتوق متاقا[٣]

فبينما نراه فى البيت الأول ، وفى النصف الأول من البيت الثانى مخبول الفؤاد ، مسلوب العقل فى حبها ، إذ به يتهددها — إن لم تستجب لوصله — برياضة قلبه على نسيانها حتى يغدو ما يتوق إليها متاقا .

وقد عاب القدماء مثل هذا المذهب فى النسيب ، وعدوه فاسداً ، فعابوا على نابغة بنى جعدة (الحارث بن عدوان) قوله :

بخلْنا لبخلكِ لو تعلمين وكيف يعيب بخيلٌ بخيلا

وذهبوا إلى أن الواجب فى النسيب أن يكون على خلاف هذا[٤] .

ويقول قدامة بن جعفر عن النسيب وما ينبغى أن يكون عليه : « . . هو

---

(١) الديوان : ٥/٠٦ . (٢) الديوان : ٦/١٧ .
(٣) الديوان : ٤/١٣ — ٦ . وانظر : ص ١٠٥ من هذا الكتاب .
(٤) انظر : العمدة : ١٠١/٢ .

ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة ، أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة . . »[١] .

من أجل هذا نرجح أن ما جاء فى نسيب الشماخ الذى لم يصرح فيه باسم من يتحدث عنها ، من إمارات الصبابة ، وصدق العاطفة ، إنما كان يعنى به محبوبته الأثيرة « ليلى » .

من مثل قوله :

خليلىَّ إنى لا تزالُ تروُعنى نواعبُ تَبْدُو بالفراق تَشُوق
إذا أنا عزَّيتُ الفؤادَ عن الصِّبا أَبتْ عَبَراتٌ بالدموع تفوق[٢]

وقوله فيمن دعاها « بابنة الضمرىّ » :

لعَمْرِكَ لا أَنْسى وإن طال عَهْدُنا لقاءَ ابْنة الضَّمْرىّ فى البلد الخالى
تذكرتُها وهْناً وقد حال دونها قُرَى أَذْرَبيجان المسالحُ والجَالِ[٣]

ونحن نزعم أن « ابنة الضمرىّ » هذه هى « ليلى » التى يقول عنها : إنها كنانية كما سبق ، والضمرى نسبة إلى : ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة[٤] .

وهذا البيت الأخير قريب من قول امرئ القيس :

تنوَّرتُها من أَذْرعات وأَهلُها بيثرب أَدنى دارها نظرٌ عالى

الذى يقول عنه بعض نقادنا المحدثين : إنه « نهاية لا تهيأ مجاوزتها ، بل لا تتمكن مقاربتها ؛ لأنه ذكر أنه تخيل نارها من المدينة وهو بالشام ، فساقه الشوق إليها من أجل ذلك . . »[٥] وأرى أن بيت الشماخ أرق ، وأصدق عاطفة .

ومن أجل هذا أيضاً ، نرى أن أكثر نسيبه فى غير « ليلى » من قبيل التمليح بذكر المرأة ، والتغزل بها ، فى مطالع القصائد .

---

(١) نقد الشعر : ١٢٣ — ١٢٤ .
(٢) الديوان : ٩/١١ — ١٠ .
(٣) ملحق الديوان : ١/٣٩ — ٢ .
(٤) انظر : التاج (ضمر) .
(٥) النقد الأدبى الحديث (غنيمى هلال ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤) : ١٩٨ .

هذا : ونسيب الشماخ تشيع فيه روح الحزن . والألم . والهم . والإخفاق فى الحب ، والشكوى من الحرمان والهجر ، فهو فيه — غالباً — يسعى وراء الحبيبة من غير نوال ، ويخطب ودها ، فلا يحظى منها إلا باللقاء الخاطف ، والنظرة العجلى ، والحديث الملهوج ، وكثيراً ما تضن عليه بالوصل فتحرمه ذلك اللقاء ، وتلك النظرة ، وهذا الحديث . وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق[١] .

أسلوبه فى النسيب :

النسيب بطبعه فن رقيق ؛ لأنه فى الأصل تعبير عن عاطفة إنسانية اجتماعية رقيقة ، من أجل هذا ينبغى أن يكون « حلو الألفاظ ، رسلها ، قريب المعانى سهلها . غير كز ، ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الإيثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين . . »[٢] .

فإذا نظرنا فى نسيب الشماخ ألفيناه يتراوح بين الرقة والخشونة ، يرق حيناً حتى ليكاد يذوب صبابة ، وإذ ذاك يعذب لفظه ، ويبعد عن الإغراب ، وتقرب معانيه ، فما تحس فيها غموضاً أو كزازة ، فمن ذلك قوله السابق ، وقد رأى ما حل بديار صاحبته « ليلى » من الخراب بعد رحيلها عنها :

أَقولُ وقد شُدَّتْ برحلى ناقتى ونَهْنَهْتُ دمْعَ العيْن أَن يتَحدَّرَا
على أمِّ بيضاءِ السلام مضاعفاً عديد الحصى ما بين حِمْص وشيزرا

أرأيت كيف غلب عليه التأثر ، وهيجته الذكرى ، فامتلأت عيناه بالدموع التى يحاول أن يكفكفها خشية أن تنهمر على خديه ، فيفتضح حاله ، ويتعرض للوم اللائم ، وشماتة الشامت ، وتهدج صوته يرسل زفرات حارة ، تحمل إلى الحبيبة النائية سلاماً مضاعفاً لا حصر له .

وقد عبر عن هذه المعانى ، وتلك العاطفة الصادقة فى ألفاظ سهلة ، ولكنها غير مبتذلة ، قوية ، ولكن فى غير خشونة .

---

(١) راجع : ١٠١ — ١٠٦ من هذا الكتاب . (٢) العمدة : ٢/٩٣ .

ونستطيع أن نلتمس مثل هذا الأسلوب فى غير موضع من نسيبه ، كقوله :

رأَيت سنا برق فقلت لصاحبى ... بعيدٌ بِفَلْجٍ ما رأَيتُ سحيق
فبات مُهِمًّا لى يذكرنى الهوى ... كأَنى لبرق بالحجاز صديق
وبات فؤادى مستَخَفًّا كأَنه ... خوافى عُقَابٍ بالجناح خَفُوق

وقوله :

ولما رأَيتُ الدار قَفْرًا تبَادرتْ ... دموعٌ لِلَوْمِ العاذلات سَبُوق
فظلَّ غرابُ البيْن مُؤتَبِضَ النَّسَا ... له فى ديار الجارتيْن نعيق
خليلىّ إنى لا تزال تَروعُنى ... نواعبُ تبدو بالفراق تشوق
إذا أَنا عزَّيت الفؤاد عن الصِّبا ... أَبتْ عَبَرات بالدموع تفوق

على أنه كثيراً ما تعوزه تلك الرقة والسهولة فى نسيبه ، حتى تكاد لا تحس معانيه إلا من وراء ستار ؛ إما لصعوبة بعض ألفاظه ، وإما لخفاء المعنى وغموضه ، نرى ذلك فى مثل قوله :

تَخَامَصُ عن بَرْدِ الوِشَاح إذا مشتْ ... تَخَامُصَ حافِى الخَيْل فى الأَمعز الوَجِى[1]

فهو هنا يصف صاحبته بالرقة والرهافة ، يؤذيها ودع وشاحها ببرده ، فهى تتجافى عنه ، ولكن هذا المعنى يختفى وراء ألفاظ فيها غير قليل من الصعوبة ، مما قد يحوج القارئ إلى الاستعانة بمعجمات اللغة ؛ ليعرف المراد « بالحفا » و « الوجى » و « التخامص » ، كذلك قد يحتاج إلى إنعام النظر فى عبارة الشطر الثانى من البيت ، ليدرك أن مراده وصف الخيل التى شبه بها بالحفا والوجى ، وأن أصل التركيب : تخامص حافى الخيل الوجى فى الأمعز .

فضلا عن هذه الصورة التى أراد أن يبرز بها المعنى ويوضحه ، فلم يزد المعنى وضوحاً ، وجاءت الصورة جافية تجرح رقة النسيب .

ونستطيع أن نضرب لهذا الأسلوب أمثلة عديدة من نسيبه ، ولكننا نكتفى منها بقوله أيضاً :

---

(١) الديوان : ٢/١٢ .

وتشكو بعين ما أَكلَّتْ ركابها وقيلَ المنادى: أَصْبَحَ القومُ أَدْلج [١]

وحسب القارئ أن يرجع إلى ما أوردناه من أقوال العلماء، فى شرح هذا البيت فى الديوان ، ليرى إلى أى حد عناهم فهمه وتخريج معناه .

وقوله :

لها أُقْحوان قَيَّدتْه بإثمد يدٌ ذات أَصداف يُمَار نؤورها
كأَن حصاناً فضَّهَا القَيْنُ غُدوةً لدى حيث يُلْقَى بالفِناء حصيرها [٢]

فالألفاظ لا تخلو من صعوبة جعلت الوصول إلى المعنى يحتاج إلى غير قليل من العناء .

وقوله :

قامت تربك أَثيث النَّبت منسدلا مثل الأَساود قد مسِّحن بالفاق [٣]

فانظر إلى هذا الخيال الغريب الذى لا يخلو من جلافة ، فى تشبيه شعر صاحبته الأسود المنسدل على متنيها بذلك النوع من الحيات الملطخة بالزيت !!

ومهما يكن من شىء فأسلوب الشماخ فى نسيبه — بعامة — من حيث الألفاظ والمعانى والخيال ، هو أسلوب بدوى عفيف يحاول أن يتظرف بالتغزل ، فيرق حيناً ، ويجفو حيناً آخر ، ويلتصق خياله بحسه فى كل الأحيان .

وقد مرت بنا أمثلة كثيرة على ذلك فى دراسة نسيبه، تغنينا عن الإطالة بذكرها هنا .

---

(١) الديوان : ٢/١٧ . وانظر شرحه فى الهامش .

(٢) الديوان : ٧/١٠ . (٣) الديوان : ١٢/٢ .

(حـ) المديح

حظ المديح فيما لدينا من شعر الشماخ ورجزه ضئيل[١] ، فجملة ما قاله فيه (٣١) بيتاً ، منها (١٩) بيتاً ضمن قصيدتين فى عرابة بن أوس[٢] و (٤) أبيات من قصيدة فى يزيد بن مربع الأنصارى[٣] و (٤) أبيات من قصيدة فى شخص لم يصرح باسمه ، و (٤) أبيات من الرجز فى عبد الله بن جعفر[٤] .

ومن هذا يتبين أن الشماخ خص عرابة الأوسى بأكثر شعره فى المديح ، وسنرى بعد قليل أن مدائحه فى عرابة هذا هى أجود ما قاله فى هذا الفن .

وقد ذكرنا آنفاً ما رواه الرواة فى سبب اتصال الشماخ بعرابة ومدحه إياه ، وما أبداه عرابة من أريحية فى عطاء الشماخ ، وهذا الذى يرويه الرواة يدل على أن الشماخ لم يسع قصداً إلى عرابة طالباً رفده ، طامعاً فى أريحيته أول الأمر[٥] .

ولقد استطاع عرابة بما عرف به من سعة الجود ، والسخاء فى العطاء[٦] ، أن يستخرج كنوز الشماخ ، ودرر أشعاره فى المديح .

فقد أسبغ عليه الشماخ كل ما كان يتطلبه المجتمع الجاهلى فى سادة القوم ورؤسائهم ، من خصال المجد والرياسة والشرف ، بل لقد غالى فى مديحه إلى حد الإفراط ، نرى ذلك فى قوله له :

أنت الأمير الذى تَحْنُو الرُّءوسَ له ... قَمَاقِمُ القوم من بَرّ وآفاق
أنت المجلِّ عن المكروب كربته ... والفاتح الغُلَّ عنه بعد إيثاق
والشاعبُ لصَّدع لا يُرْجى تلاؤمه ... والهمَّ تُفْرِجه من بعد إغلاق

---

(١) انظر : الإحصائية : ص١٦٣ – ١٦٤ من هذا الكتاب .
(٢) راجع ترجمته : ص ١٤٤ – ١٤٦ من هذا الكتاب .
(٣) راجع ترجمته : ص ١٤٩ – ١٥٠ من هذا الكتاب .
(٤) راجع ترجمته : ص ١٤٧ – ١٤٨ من هذا الكتاب .
(٥) راجع : ص ١١٩ – ١٢٠ من هذا الكتاب .
(٦) انظر : ص ١٤٥ من هذا الكتاب .

فى بيت مأثُرةٍ عزٍّ ومكرمة سبَّاق غايات مجدٍ وابن سباق
ضخمُ الدَّسِيعَةِ متلاف أخو ثقة جَزْلُ المواهب ذو قيل ومصداق[١]

أرأيت كيف يرفع الممدوح إلى مرتبة دونها مقام السادة ذوو الفضل فى كل أنحاء الأرض ؟!

والحق أن شاعرنا قد بالغ كثيراً فى تعظيم مقام ممدوحه ، فمن عرابة الأوسى هذا الذى جعله يفوق فى السيادة والرياسة سادة العصر ، وفيهم رجالات الإسلام ، وأهل الفضل والسلطان ؟ !

لا شك أن هذا الثوب الذى يخلعه على ممدوحه ثوب فضفاض ، لا يلائم شخصية الممدوح .

وقد يقال : إن هذا الغلو فى تعظيم مقام الممدوح ، إنما هو من قبيل تلك الصفات الجوفاء، التى كان الشعراء المتكسبون يكيلونها جزافاً لممدوحيهم[٢]، لا يعنيهم من ذلك إلا هز أريحيتهم للجود، والفوز بجزيل هباتهم .

ونحن لا يسعنا إنكار أن الشماخ — بعد أن ذاق حلاوة عطاء عرابة — كانت تحركه الرغبة فى المزيد من العطاء ، فهو نفسه لم يأنف أن يعرض بحاجته إلى عطية الممدوح فى قوله :

إليك أشكو عراب اليوم خلتنا يا ذا العلاء ويا ذا السؤْدد الباقى[٣]

وقوله من قصيدة أخرى :

فِدًى لعطائك الجَزْلِ المُرَجَّى رجاءَ المُخْلَفَات من الظُّنُون
غداةَ وجدتُ بَحْرَك غيرَ نزر مَشَارِعُه ولا كدِرِ العيون[٤]

غاية الأمر أننا نميل إلى أن الشاعر، كان إلى جانب هذا شديد التأثر بتلك

---

(١) الديوان : ١٢/١٤ — ١٨ .
(٢) من ذلك قول النابغة الذبيانى فى ممدوحه :
بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
(انظر : النابغة الذبيانى : ١٨٦ — ١٨٨) .
(٣) الديوان : ١٢/١٣ .
(٤) الديوان : ١٨/٢٨ — ٢٩ .

الأريحية، التى أبداها عرابة فى لقائهما ، الذى أشرنا إليه سابقاً ، يضاف إلى هذا ما أشار إليه فى قوله عقب هذه الأبيات :

فقد أتانى بأَنْ قد كنتَ تغضبُ لى ووقعةٌ عنك حقًّا غير إيراق
فسرَّنى ذاك حتى كدتُ من فرحٍ أُسَاوِرُ الطَّوْدَ أو أَرْمى بأَرْوَاق
فسوف يلقَاهُ منى – إن بقيتُ له – لاق بأَحسن ما يَلْقِى به اللاَّقى

فإن هذا القول ، يشير إلى أن عرابة كانت له مكرمة أخرى – غير العطايا – طوق بها عنق الشماخ ، مما جعله يندفع فى مديحه إلى هذا الحد المفرط ، بل يعده بموالاة الثناء عليه ، ما بقيت فيه حياة [1].

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير إلى الأبيات السابقة ، فنرى أن الشاعر يصف ممدوحه بكثير من الفضائل النفسية والإنسانية ، فهو مفرج الكروب والهموم عن كل ذى كرب وهم ، بما يمده إليه من يد المساعدة التى تقيل عثرته الشديدة ، وتكشف غمته المستحكمة ، وحين يفسد ما بين الناس حتى يظن أنه لا أمل فى إصلاح ذات بينهم ينهض الممدوح ، فيرأب الصدع ، ويلم الشعث ، ولا بدع ، فهو من بيت أثرت فيه المكارم والأمجاد ، فإن يكن قد حاز قصب السبق إلى المجد فقد حاز من قبله أبوه ، وهو وهاب العطاء الجزل ، واسع السخاء ، يتلف ماله بكثرة عطائه يعد بالنوال ، فيصدق قوله فعلُه .

ولعل مقدرة الشماخ الفنية ، وثروته اللغوية واضحة فى هذه الأبيات ، حيث نراه – مثلا – يقلب المعنى فى عبارات مختلفة ، زيادة فى تأكيده ، وإبرازه ، دون أن يحس القارئ بالملل من التكرار ، كقوله :

أنت المجلى عن المكروب كربته والفاتح الغل عنه بعد إيثاق

مع قوله : « والهم تفرجه من بعد إغلاق » .

ويجمع الشماخ لعرابة الخصال الفاضلة كلها ، ويسوق إليه المجد منقاداً فيقول :

رأيت عَرَابة الأَوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
أفاد محامدًا وأفاد مجداً فليس كجامد لحزٍ ضنين

(١) انظر فى مدى تكسب الشماخ بشعره : ص ١١٩ – ١٢١ من هذا الكتاب .

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجد تلقَّاها عرَابةَ باليمين[1]

وكأنما أراد الشماخ أن يقطع الطريق على الشعراء ، ويسد عليهم منافذ القول ، حتى لا يسمو على مدحه مدح ، ولا يعلو على صاحبه ممدوح ، فاستصفى كل معانى المدح ، وأودعها هذا اللفظ القليل الذى سارت به الركبان ، وطار على كل لسان ، وبلغ الشماخ ما أراد، فكان قوله هذا سبباً فى ارتفاع عرابة ، وذيوع صيته .

حقًّا ، لقد كان الشماخ بارعاً فى هذا القول الذى بلغ به الغاية فى المديح ، مع خلوه عن الإطالة وبعده من الإكثار ، ودخوله فى باب الاختصار .

وبراعة الشماخ تتجلى أكثر ما تتجلى فى البيت الثالث من هذه الأبيات . حيث عبر فيه عن معنى تناوله بعض الفحول من الشعراء قبله فى بيتين ، يقول زهير بن أبى سلمى فى مدح هرم بن سنان :

إذ ابتدرت قيسُ بن عيلان غاية من المجد من يسبقْ إليها يُسوَّد
سبقتَ إليها كلَّ طَلْقٍ مُبَرِّز سبوق إلى الغايات غير مُجلَّد[2]

فإن كان لزهير فضل السبق إلى المعنى ، فللشماخ فضل الإيجاز بالتعبير عنه فى بيت واحد ، لامطمع بعده لموجز ، على أن زهيراً قيد المعنى بقوله : « إذا ابتدرت قيس بن عيلان » وأطلقه الشماخ .

كذلك سبق إلى هذا المعنى بشر بن أبى خازم ، ولكنه جاء به فى بيتين أيضاً ، فقال يمدح أوس بن حارثة بن لأم الطائى :

إذا ما المكرماتُ رُفِعْن يوماً وقصَّر مبتغُوها عن مداها
وضاقتْ أذرع المُثْرين عنها سما أوسٌ إليها فاحتواها[3]

كما تتضح جودة القريحة عند الشماخ فى جمعه للأفعال الحميدة ، والخيرات

---

(١) الديوان : ١٨/٢٣ — ٢٥ .

(٢) ديوان زهير : ص ٢٣ . ابتدرت : تسابقت . الطلق : البين الفضل المعطاء . غير مجلد : أى يسبق إلى الغاية عفواً ، على التشبيه بالفرس الجواد الذى يسبق إلى غاية السباق من غير ضرب وجلد .

(٣) ديوان بشر : ص ٢٢٢ . وقد نص بعض القدماء على سبق بشر إلى المعنى وأخذ الشماخ عنه ، ولكنهم قدموا الشماخ لفضيلة الإيجاز (انظر : سر الفصاحة : ٢٠٥ ، وخزانة الأدب : ١/٤٥٥) .

المشاهدة فى البيت الأول ، مما جعله توطئة للبيت الثالث ، الذى دل به على الأخلاق العتيدة والفضائل النفسية ، فإن الأفعال المشاهدة سابقة فى الإحساس لما فى النفس ، ودالة عليه ، كما يقول عبد اللطيف البغدادى[١] . هذا ؛ إلى ما فى البيتين (الأول والثالث) من الإصابة فى التعبير عن المعنى ، عن طريق اختيار اللفظ المناسب ، كقوله : « رأيت » فى البيت الأول ، ومن معانيه المشاهدة ، وهى أدل شىء على صحة الأمر فلا دليل أقوى منها ، وقوله : «تلقاها» الذى هو أدل على التمكن من المجد من (أخذها) أو نحوه ، وكذلك النص على أن التلقى «باليمين» التى هى رمز القوة والاقتدار ، واختياره التنكير فى قوله : «إذا ما راية » وقوله : « لمجد » وهو أبلغ فى الدلالة على سمو الممدوح إلى كل الأمجاد .

من أجل هذا كله كان القدماء يستحسنون هذا القول من الشماخ ، ويعدونه مثلا للإيجاز مع بلوغ الإرادة [٢] .

وأكثر الرواة لقول الشماخ السابق ، أسقطوا من رواياتهم البيت الثانى من هذه الأبيات الثلاثة[٣] ، وربما فعلوا ذلك عن عمد ؛ لما أحسوه من ضعفه بين هذين البيتين ، اللذين يبلغان الغاية فى الجودة ، وأجود منه عندنا قول زهير يمدح هرم بن سنان :

إن تلق يوماً على علاَّته هَرِماً تلق السماحة منه والندى خُلُقا[٤]

فقد جعل زهير السماحة والندى طبيعة وسجية فى ممدوحه ، بينما جعل الشماخ كلا من المحامد والمجد أمراً مكتسباً ، سعى إليه الممدوح حتى حصله ، وقد يكون قول الشماخ أكثر واقعية ، وأقرب إلى الصدق ، ولكن المبالغة المقبولة مستحبة فى مثل هذه الأغراض .

وكما حرص الشماخ على تمجيد عرابة على هذا النحو الذى رأيناه ، كذلك لم يفته تمجيد قومه ، والإعراب عن أصالتهم فى السؤدد ، والشرف ، والشجاعة ، والسخاء ، وفى كل هذا تكريم للممدوح ، وتأكيد لما خلعه عليه من المحامد ؛ إذ كان النزوع

---

(١) انظر : شرح شواهد الشافية : ٢٠٤ .
(٢) انظر : نقد الشعر : ٧٤ — ٧٦ ، والعمدة : ١٠٩/٢ .
(٣) انظر : تخريج القصيدة : ١٨ فى الديوان . (٤) ديوان زهير : ص ٤٣ .

والسبق إلى الفضائل والأمجاد طبع أصيل متوارث فى سادات قومه، وقد مر بنا قوله : « سباق غايات مجد وابن سباق » وها هو ذا يقول فى قوم الممدوح :

ومثلُ سَرَاةِ قومك لم يُجَارَوْا إلى رُبع الرِّهان ولا الثَّمين
رماحُ رُدَيْنَةٍ وبِحَارُ لُجٍّ غَوَارِبُها تَقَاذف بالسَّفِين[1]

فهو هنا كأنه يدلل على أن ما بلغه ممدوحه من المجد ليس بغريب عليه ، فهكذا كان قومه دائماً ، لا يلحق شأوهم لاحق ، ولا يفاخرهم مفاخر ، وهم غاية فى الشجاعة والسخاء .

هذا هو مديح الشماخ لعرابة الأوسى ، قد بلغ فيه من القوة والإجادة، والإخلاص للرجل الذى طوق عنقه بفضله ما رأينا .

فأين من هذا المديح قوله فى يزيد بن مَرْبع الأنصارى بعد أن ذكر ناقته ووصف رحلتها إلى الممدوح :

ولولا فتى الأَنْصَار ما سَكَّ سمْعَها ضُمَيْرٌ ولا حَوْرَانه فقراهما
وإنى لأَرجو من يزيد بن مربع حذِيَّتَه من خَيْرتَيْن اصطفاهما
حَذِيَّتَه من نائل وكرامة سعى فى بُغَاء المجدحتى احتواهما[2]

إنه فى هذه الأبيات الهزيلة ، لم يكد يخرج عن طلب صلة الممدوح فى غير تعفف أو حياء ، فضلا عن الإساءة فى الطلب، بهذا الإيجاز الذى بلغ حد التقصير فى الثناء على الممدوح ؛ مما جعل شخصيته تتضاءل أمام تلك الشخصية القوية البارزة التى رسمها لعرابة ، هذا إلى جانب الإساءة فى التعبير أيضاً بقوله : « سعى» الذى لا يجرى مع قوله السابق فى عرابه « يسمو» ، وقول زهير السابق فى هرم : « غير مجلد » .

وقوله فى عبدالله بن جعفر، لا يقل هزالا وتكلفاً عن هذا الذى قاله فى يزيد ابن مربع[3] .

---

(١) الديوان : ١٨/ ٢٦ — ٢٧ .
(٢) الديوان : ١٧ / ٢٠ — ٢٢ .
(٣) راجع رجزه فى عبد الله بن جعفر ، وتعليقنا عليه ، ورأى بعض القدماء فيه، ص ١٤٨—١٤٩ من هذا الكتاب .

هذا ، وللشماخ أبيات أربعة يمدح فيها شخصاً لم يصرح باسمه فيها ، وهى قوله :

وأَشْعَثَ قد قدَّ السِّفارُ قميصه ... وجَرَّ الشِّواء بالعصا غير مُنْضَج
دعوتُ فلبَّانى على ما يَنُوبنى ... كريمٌ من الفِتْيان غيرُ مُزَلَّجِ
فَتًى يملأ الشِّيزَى ويروى سنانه ... ويضربُ فى رأْس الكمىِّ المدجَّج
أَبَلٌّ فلا يَرْضى بأَدنى معيشة ... ولا فى بيوت الحىِّ بالمتوَلِّج (١)

فانظر إلى هذه الصورة البدوية الخشنة ، التى يصور فيها ممدوحه فى البيت الأول ، تُرى لو أراد رسام أن يبدع بريشته صورة لصعلوك متشرد قذر ، هل كانت تجود عليه العبقرية ، بأفضل من هذه الصورة التى يمدح بها الشماخ ؟ !

ولكنها مع ذلك صورة مستمدة من واقع البيئة ، فى خشونتها ومثلها وتقاليدها ، التى كانت ترى السيادة خلقاً وسلوكاً ، لا مظهراً يعتمد على حسن الهيئة وجميل الثياب ، على أنه وإن كان قد صوره فى هذه الصورة التى تنفر منها أذواقنا الآن ، فقد أحسن الثناء عليه بالمروءة والكرم ، ونفى اللؤم ، والتأخر عن المكارم ، كما أجاد نعته بالشجاعة ، وعلو الهمة ، والعفة عن المحارم .

وبعد : فهذا هو كل ما لدينا من شعر الشماخ فى المديح تقريباً ، ومنه يتبين ما سبق أن أشرنا إليه ، من أن أكثر ما قاله فيه وأجوده هو شعره فى عرابة الأوسى كما يتبين أن مديحه كله يدور حول نفسه ، من الرغبة فى العطاء ، أو الشكر على مكرمة خاصة ، وليس فيه شىء مما نجده عند شعراء القبائل ، من تمجيد رؤساء القبيلة وأبطالها ، وذوى الشرف فيها ، مما يؤكد ما رجحناه مراراً من انطواء الشماخ على نفسه ، واعتزاله الحياة العامة .

أسلوبه فى المديح :

لعل أهم ما يلفت النظر فى هذا الأسلوب ، هو سهولة الألفاظ عموماً ، حتى نكاد لا نجد فيها تلك الوعورة والغرابة التى نلمسها فى شعر الوصف عنده ، ولعله كان يقصد بذلك أن يفهم عنه ممدوحه خاصة ، والناس عامة ما يقول ، فى سهولة ويسر ، وأن تخف على ألسنتهم مدائحه فتذيع وتشتهر ، وقد أحسن اختيار الألفاظ التى تعبر عما يريده من المعانى ، مع جزالتها وسموها عن الابتذال ، وخاصة فى مدح عرابة كما رأينا .

---

(١) الديوان : ٢/٢٣ — ٢٦ .

وعباراته فى مدح عرابة قوية، جيدة السبك ، تميل غالباً إلى الإيجاز ، ولكنه جمع فيها من معانى المديح ما تبسط فيها الأبيات الكثيرة ، دون أن تربو عليها، مع فضل الإيجاز ، وإصابة الغرض .

وظاهرة الإيجاز هذه مع تركيز المعانى واضحة فى غير قليل من شعر الشماخ فى أغراضه المختلفة ، وتلك مقدرة فنية اتسم بها فى شعره ، وأجادها .

أما عباراته فى مدح غير عرابة فمضطربة ، خالية من الجدة ، والابتكار ، ومقتضبة موجزة ، ولكنه الاقتضاب المخل ، والإيجاز الذى يسقط دون الغاية .

ومعانيه فى المديح هى نفس المعانى التى كان يشيد بها الشعراء فى هذه البيئة ، ويحرص الشاعر على خلعها على ممدوحه ، وهى فى جملتها كانت تعتبر المثل العليا فى تلك البيئة البدوية ، من الكرم، والشجاعة ، والعفة ، وشرف النسب ، والسيادة ، والإعراق فى المجد ، والمروءة ، وعلو الهمة . . . ونحو ذلك، مما نجده يتردد فى أشعار الجاهليين فى المديح ، وإن كان تعبيره عنها — خاصة فى مدح عرابة — لم يخل من الجودة والابتكار ، مما جعلها تبدو طريفة رائعة .

ومع أنه بالغ فى المعانى التى خلعها على عرابة ، إلا أنه لم يصل بهذه المبالغة إلى الحد الذى بلغه الشعراء المتكسبون بالمديح ، كالنابغة الذبيانى ، والأعشى . . وغيرهما[1] ، فلم يتجاوز حد التعقل ، ومألوف الطبع غالباً .

وشعره فى عرابة لا تنقصه حرارة العاطفة ، التى يبعثها شعوره بالامتنان والشكر ، على ما أسبغه عليه من أيادٍ بيضاء ، سواء منها ما يتصل بجزيل عطائه ، وما بلغه من دفاعه عنه ، وانتصافه له ، وغضبه من أجله فى غيبته .

أما مديحه لغيره فألفاظ وعبارات لا ترجع إلى أبعد من طرف اللسان .

وتشبيهاته مادية تقليدية ، فهو يشبه الكريم بالبحر، والجود بالموج المزبد . . .

ولم يختلف عن عادة الجاهليين من التقديم للمديح بذكر الناقة، وإجهادها فى السير ، وقطع المفاوز ، ووعورة الطريق ، وإدامة السير ليلا ونهاراً للوصول إلى

---

(١) انظر : المديح (سامى الدهان — سلسلة فنون الأدب العربى ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ) : ١٧ وما بعدها، وكذلك صفحة : ٤٩ من نفس المرجع وما بعدها .

الممدوح ، كل ذلك ليوجبوا عليه حق القصد ، وذمام القاصد . .[١] .

ويظهر هذا الأسلوب فى مدحه لعرابة ويزيد فقط ، وإن كان يعاب على الشماخ شيء فى ذلك فهو أنه كان يطيل مقدمة المديح من النسيب والوصف ، حتى يبدو مديحه بعدها وكأنه خواطر عارضة فى القصيدة ، وليس غرضاً مقصوداً لذاته .

وإطالة المقدمة فى فن المديح مذهب عابه بعض القدماء على الشعراء ، فقد قيل : « مدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء ، فأعطاه سبعين ألفاً ، وخلع عليه ، حتى لم يستطع أن يقوم ، فغار الشعراء لذلك ، فجمعهم ثم قال : عجباً لكم معشر الشعراء ، ما أشد حسد بعضكم لبعض ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا ، فينسب فى قصيدته بصديقته بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ، ورونق شعره . .»[٢] .

أما بقية أبياته فى المديح فهى ما بين قطعة من الرجز مفردة ، وأبيات من قصيدة فى الوصف ، أقحمت بين المقدمة الغزلية وباقى الأبيات فى وصف الناقة ، والحمر الوحشية .

(د) الفخر

أكثر فخر الشماخ يدور حول نفسه ، والتمدح بخصاله ، وقلما شغل بتمجيد قومه ، والإشادة بمآثرهم ومفاخرهم ، وقد كان جديراً بنشأته فى البادية — حيث يشتد التنافس والتفاخر بين القبائل — ومكانة قبيلته ، وما عرفت به من قوة وبأس ، وعزة ومنعة ، وما حفل به تاريخها من أمجاد ومفاخر[٣] . أن تتمكن فيه النزعة إلى المفاخرة ، وأن تعلو فى شعره نغمة الاعتزاز بقومه والتغنى ببطولتهم ، ومناقبهم ، ومفاخرهم ، كما هو الشأن عند غيره من شعراء القبائل ، التى كان لها فى تاريخ الحياة العربية دور ملحوظ .

---

(١) انظر : العمدة ١/١٥١ . (٢) العمدة : ٢/١٠٦ .

(٣) راجع : ص ٦٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

إلا أن شاعرنا فيما يبدو ، كان منطوياً على نفسه ، مشغولا بهموم حياته الخاصة ، مما جعله فى شبه عزلة عن الحياة العامة ، واهتماماتها كما أشرنا إلى ذلك مراراً [١] .

من أجل هذا لم نجد له شعراً فى الحماسة ، كما قل شعره فى المديح — كما رأينا — والفخر والهجاء والرثاء [٢] ، ونحوها ، من الأغراض التى يكثر من القول فيها الشعراء الذين تقوى مشاركتهم فى حياة مجتمعاتهم ، ويتأثرون بحاجاتها ، واهتماماتها [٣]

لم يستطع الشماخ أن يسمو بفخره ليعبر عن الوجدان الجماعى فيه ، فالذاتية هى الظاهرة الواضحة فى هذا الفخر ، حتى عندما يتعرض بالإشارة السريعة إلى الفخر بقومه ، نحس إحساساً قوياً بذاتيته فيه ، نرى هذا فى قوله يخاطب « أسماء السلمية » فى قصة سبق أن ذكرناها [٤] ، متمدحاً بكرم قومه :

وإنّى لمن قومٍ — على أن ذَمَمْتِهم — إذا أَوْلَمُوا لم يُولِمُوا بالأَنافح [٥]

وقوله يفخر بانتسابه إلى بنى ذبيان :

إنى امرؤٌ من بنى ذبيان قد علموا أَحْمِى شريعةَ مجدٍ غير مَوْرُود [٦]

وقوله يعتز بقومه بنى جحاش ، ويفخر بصريح نسب أبيه :

أَنا الجِحَاشِىُّ شَمَّاخٌ وليس أَبى بنخْسَةٍ لنزيع غير موجود
منه نُجِلْتُ ولم يُوشَبْ به حَسَبِى ليًّا كما عُصِبَ العِلْباءُ بالعود [٧]

أرأيت كيف يصدِّر هذا الفخر مؤكداً ذاتيته بهذا التعبير الواضح الصريح ، وهو الضمير « أنا » و « إنى » ، وفى غير هذه المواضع نكاد نحس أنه إنما يهدف من وراء افتخاره بقومه إلى تأكيد الفخر بذاته ، ومنزلته ، ورفعة مكانته ، وعزته ، من ذلك قوله يرد على هجاء الربيع بن علباء [٨] إياه :

---

(١) راجع : ص١١٣ من هذا الكتاب .
(٢) راجع الإحصائية : ص ١٦٣ — ١٦٤ من هذا الكتاب .
(٣) راجع : ١٦٤ من هذا الكتاب . (٤) راجع : ص٩٢ وما بعدها من هذا الكتاب.
(٥) الديوان : ٣/٠٨ (٦) الديوان : ٤/١٧ .
(٧) نفس القصيدة : ١٩ — ٢٠ .
(٨) هو شاعر من مجاهيل الشعراء : راجع ص ١٤١ من هذا الكتاب ، وانظر مقدمة القصيدة (٤) فى هامش الديوان .

بل هلْ أتاها على ما كان من حَدَث أن الحروب اتَّقَتْنا بالصَّناديد
إن الضِّراب بِبِيض الهند عادتُنا ولا نُعَوَّد ضَرْباً بالجلاميد [١]

هذه الأبيات السابقة هى كل ما لدينا من فخر الشماخ بقومه ، وهى على ما ترى تكاد لا تعد من الفخر القبلى ، الملون بالوجدان الجماعى ، الذى يكاد يكون معدوماً عند الشماخ .

ولننظر الآن فى شعره الذى يتغنى فيه بنفسه ، وما تتحلى به من خصال وسجايا ، نراه يتحدث عن شجاعته وحمايته لأمجاد قومه فيقول :

إنى امرؤٌ من بنى ذُبيان قد علموا أحمى شريعة مجدٍ غير مورود
معى رُدَيْنِىٌّ أقوام أذود به عن حوضهم وفَرِيصِى غير مرعود

وعلى الرغم مما يدعيه الشماخ فى البيت الثانى من الذود عن حياض قومه ، وما قد يوحى به ذلك من مشاركته فى معارك القبيلة وحروبها ، دفاعاً عن أمجادها ، وحماية لأعراضها ومكانتها بين القبائل ، نقول : على الرغم من ذلك يخلو شعره كله مما يؤيد دعواه ، فليس فيه حديث عن شىء يتصل بخصومات القبيلة ، وما ينتج عنها من اشتباكات وقتال وفرح بنصر ، أو اعتذار عن هزيمة ، أو ما يشبه ذلك أو يقاربه ، أو يتصل به ، مما يعرف بشعر الحماسة ، فهذا القول إذن ليس إلا من قبيل الادعاء الأجوف . الذى لاحقيقة له ولا دليل عليه .

على أنه يتحدث عن شجاعته فى مجال آخر . ربما كان حديثه فيه أقرب إلى الصدق والواقع ، حسبما نعرف من حياته وما يظهر فى شعره ، الذى يصوره جواباً للصحراء ، ممتطياً ظهر ناقته مسلياً همومه ، لا يروعه ليلها الرهيب ، ولا ينال من عزمه حرها اللافح ، وطبيعتها القاسية ، وقد مر بنا شعره فى ذلك فلا نعيد ذكره هنا [٢] .

---

(١) الديوان : ٤/٢٤ و ٣٢ ، وانظر رأينا فى مرجع ضمير الغائبة فى قوله من البيت الأول « أتاها » فى الهامش .

(٢) راجع : ص ١٥٢ — ١٥٣ من هذا الكتاب .

وللصحراء رهبة مروعة . لا يجسر على ارتيادها إلا كل شجاع صنديد ، قد تمرّس بالسير فيها ، حتى خبر معالمها ، وطرقاتها ، وألم بمعروفها ومنكراتها .

وقد افتخر الشماخ بخوض الصحراء ، وخبرته بمسالكها ، وحسن قيادته للركب فيها ، فى عدة مواضع من شعره . فمن ذلك قوله من رجزله يتحدث فيه عن إبل الركب :

يهدى بهن نحْرِىٌّ هَوَّاس
كأَن حُرَّ الوجه منه قرطاس[1]

كما تغنى بشجاعته ، وإقدامه على اقتحام الشدائد التى يحجم عنها كل جبان ضعيف ، وذلك قوله :

وغمرة موت خضتُ حتى قطعتها وقد أَفظع الجبْسَ الهِدَانَ خياضُها
صَلِيتُ بها فى المُصْطَلِين بحرِّها فَطَلَّتْ وقد كانت شديدًا عِضَاضُها[2]

ونحن لاندرى ماذا يقصد بقوله : « وغمرة موت » أهى حرب خاضها ، واصطلى مع المصطلين بحرها ؟ أم تجربة قاسية من تجارب الحياة فى الصحراء واجتيازها ، مرت به واستطاع أن يخرج منها سالماً بفضل شجاعته وإقدامه ؟ ومما هو جدير بالذكر أنه قبل هذين البيتين كان يتحدث عن رحلة له فى الصحراء على ظهر ناقته فلعله عنى بقوله : « غمرة موت » هذه الرحلة ، وأنها كانت قاسية شديدة الأهوال .

ومهما يكن من شىء ، فإن الشاعر لم يكن موفقاً فى التعبير عن المعنى الذى أراده بقوله : « وقد أفظع الجبس الهدان خياضها » . إن الجبان الضعيف يفزع مما هو أقل هولا من هذا الموقف ، الذى يدلل على شدته بقوله : « وغمرة موت » وقوله : « وقد كانت شديداً غضاضها » وفزع الجبان وإحجامه عن خوض هذه الشدة

---

(١) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥/٥ – ٦ يهدى بهن : يسوقهن ، نحرى : حاذق مجرب . هواس : مجرب شجاع .

(٢) الديوان : ٩/١٢–١٣ . والبيت الثانى مقدم على الأول فى الديوان ، وقد رجحنا هناك ترتيبنا هذا لمناسبة المعنى .

لا ينهض دليلا على ما أراده الشاعر ، من المبالغة فى وصف شجاعته وإقدامه ، فلو أنه قال مثلا : وقد أفظع الصلد الشجاع ، لكان أدل على المعنى الذى أراده .

وهو يتمدح بفروسيته ، وبطولته فى إحدى المعارك الإسلامية [١] التى اشترك فيها مجاهداً فى سبيل الله . فى قوله :

وقد علمتْ خيلٌ بمُوقَانَ أَنَّنى ... أنا الفارسُ الحامى لدى الموت نَزَّال
وأَعددتُ للساقَيْن والرِّجْل والنَّسَا ... لِجَاماً وسَرْجاً فوق أَعْوَجَ مُخْتَال
أَرِقْتُ له فى القوم والصبحُ ساطعٌ ... كما سطعَ المُرِّيخُ شمَّره الغالى [٢]

على أنه أضعف المعنى الذى أراده فى البيت الأول ، بما أبداه من جهل بالفروسية فى البيت الثانى ، فاللجام إنما يعد للشدقين ، والسرج لظهر الفرس لا للساقين والرجل والنسا ؛ ولذا عد بعض النقاد القدماء بيت الشماخ هذا من الأبيات التى قصر أصحابها عن الغايات التى أجروا إليها ، ولم يسدوا الخلل الواقع فيها [٣] .

أما المضاء ، وقوة العزيمة ، واطّراح التردد فيما يراد من الأمور ، فخلق حرص الشماخ على التمدح به فى عدة مواضع من شعره . فهو حين يشتد الخوف ويدلهم الخطب ، يقدم بعزيمة قوية لا يعوقها عائق :

وكنت إذا ما شُعبتا الأَمر شكَّتا ... عزمتُ ولم يَحْبِل هموى إبَاضُها [٤]

والتردد ليس من شيمته ؛ لأنه عجز . فإذا هم بالأمر ، وعزم عليه ، أنفذه على ناقته الضامرة السريعة :

وعَوْجاءَ مِجْذَامٍ وأَمرٍ صَرِيمةٍ ... تركتُ بها الشكَّ الذى هو عاجز [٥]

وقوة عزيمته هى مناط تحقيق آماله ورغباته ، فإذا رام أمراً صمم على بلوغ مرامه :

وكنتُ إذا حاولتُ أَمراً رَمَيْتُه ... لعيْنَىَّ حتى يَبْلغا منتهاهما [٦]

---

(١) راجع : ص ٣٤ وما بعدها من هذا الكتاب .
(٢) ملحق الديوان : ٩/٣٩ — ١١ .
(٣) عيار الشعر : ٩٦ — ٩٧ .
(٤) الديوان : ١٤/٩ .
(٥) الديوان : ٤/٨ .
(٦) الديوان : ١١/١٧ .

فلله ما أروع تعبيره عن تصميمه ، ومضاء عزيمته فى قوله : « رميته لعينىّ » إنه يجعل غايته نصب عينيه ، لا يغفل عنها ، ولا يقصر فى بلوغها حتى يدركها !!

وهذه العزيمة ، وهذا التصميم لا يكونان إلا لرجل قوى الإرادة ، متماسك ، لا تتساقط نفسه أمام شدائد الحياة وهمومها :

ولست إذا الهموم تحضَّرتنى بأَخضع فى الحوادث مستكين [١]

ومع ذلك ، فهو رجل عاقل حصيف ، يقدم حين يحسن الإقدام ، ويعتصم بالحلم فى المواقف التى يكون فيها الإقدام تهوراً وطيشاً وجهلا :

ومرتبةٍ لا يُسْتَقَالُ بها الرَّدى تلافى بها حلمى عن الجهل حاجز [٢]

وهو إلى جانب هذا كله شديد الحياء ، وقد يدفعه حياؤه إلى مجاملة من يعلم أن صدورهم تغلى حقداً عليه ، وكراهية له :

أجاملُ أقواماً حياءً وقد أرى صدورهمُ تَغْلى علىَّ مِراضُها [٣]

وكما افتخر الشماخ بهذه الصفات الخلقية والنفسية ، افتخر كذلك بشاعريته ، ولسانه الحاد .

فهو يتوعد الربيع بن علباء السلمى ، إن لم يكف هو وقومه من بنى سليم عن هجائه بقوله :

إن كنتمُ لستمُ ناهين شاعركم ولا تناهوْنَ عن شتمى وتهديدى
فاجْرُوا المِرِّهان فإنى ـ ما بقيت لكم ـ غَمْرُ البديهة عَدَّاءُ القَرادِيد
مُحاذِرُ السَّوْط خَرَّاجٌ على مَهَلٍ من الأَضَاميم سبَّاق المَوَاخيد [٤]

فهو هنا يضرب مثلا لقدرته على المساجلة فى الهجاء ، وحسن تصرفه فيه ، يتأنى فيما تحسن فيه الأناة ، ويسرع فيما تحمد فيه السرعة .

أرأيت إلى أى مدى يتحدى خصومه ، واثقاً بشاعريته ، ومقدرته على التصرف فى الهجاء ؟!

---

(١) الديوان : ٦/١٨ .
(٢) الديوان : ٣/٨ .
(٣) الديوان : ١٦/٩ .
(٤) الديوان : ٢١/٤ – ٢٣ .

هذه هى الخلال التى تغنى بها الشماخ فى شعره ، وهى فى مجموعها تدور حول بعض الأخلاق والعادات التى تفخر بها العرب ، والتى كانت ثمرة حاجاتهم ، وصور معيشتهم ، وهى مستوحاة من حياة الفطرة ، وحياة البادية ، هذا إلى جانب فخره بالتعقل ، والفيض الشعرى .

أسلوبه فى الفخر :

شعر الشماخ فى الفخر قليل ، وأبياته فيه متناثرة مبثوثة خلال شعره فى الأغراض الأخرى ؛ ولذا فقد يكون من الصعب على الباحث ، أن يستشف من هذه الأبيات القليلة المتناثرة ، أحكاماً دقيقة واضحة على أسلوبه فى الفخر .

إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نبدى بعض الملاحظات على هذا الأسلوب :

١ — اشتداد أساليبه الكلامية وألفاظه وحروفه اشتداداً هدّاراً ، يعبر عن انفجار النفس ، واصطخاب القلب ، فى المواقف الانفعالية الشديدة — كما رأينا فى وعيده السابق للربيع بن علباء وقومه ، وقوله أيضاً فى نفس القصيدة التى يرد فيها على هجاء الربيع :

إن الضراب ببيض الهند عادتنا ولا نُعوِّد ضرباً بالجلاميد

فانظر إلى قوله : « الجلاميد » التى تحكى صلابة الحجارة ، ثم هذه الضادات المتكررة التى تكسب الأسلوب قوة وعنفاً .

وقوله فى نفس القصيدة ، يعتز بقومه « بنى جحاش » . ويفخر بصريح نسب أبيه ، وقل مثل ذلك فى قوله السابق فى غمرة الموت التى خاضها ، فالعبارات والألفاظ والحروف شديدة تمثل شدة هذه الغمرة ، من مثل تكرير الضاد فى قوله : « خضت ، خياضها ، عضاضها » والطاء فى : « المصطلين ، طلت ، قطعتها . . . » إلخ .

٢ — المبالغة فى بعض المعانى . وهى إما نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، كما رأينا فى تهديده الربيع بن علباء ، وتصويره لمدى قوة عزيمته وإقدامه ، أو وليدة الادعاء الأجوف الذى يحفزه إليه الشعور بالنقص — كما مر بنا فى

قوله الذى يدعى فيه الذود عن حياض قومه ، وقوله عن فروسيته فى حرب «موقان» .

٣ — الاضطراب فى التعبير عن المعنى أحياناً، مما يقصر به عن بلوغ غرضه الذى يهدف إليه ، وقد نبهنا على ذلك فى موضعه من دراستنا السابقة .

٤ — كل شعر الشماخ فى الفخر جاء فى بحور : البسيط والطويل والوافر ، وهى بحور تتيح للشاعر قوة الأداء وجلاله . والطويل أصلح البحور لمواقف الجد ، كما أن البسيط والوافر ، أكثر البحور ملاءمة للفخر الغاضب الثائر[١] .

(هـ) الذم والتهديد

كل ما لدينا من شعر الشماخ الذى يتحدث فيه عن خصومه ، معبراً عن شعوره نحوهم ، أو مهدداً إياهم بالهجاء المؤلم ، لا يتجاوز(٢١) بيتاً . منها : (١٥) بيتاً ضمن قصيدة فى الربيع بن علباء السلمى — الذى سبقت الإشارة إليه — وقومه من بنى سليم ، وبيتان من مقطوعة فى أصهاره من بنى سليم أيضاً . وبيت واحد فى كل من : أخيه جَزْء بن ضرار ، ورجل من بنى تغلب لم يصرح باسمه ، وبيتان من الرجز لا ندرى مناسبتهما ، ولا المراد بهما[٢] .

وقد عرفنا فيما سبق سبب تعرض الشماخ بالذم والتهديد للربيع بن علباء وقومه[٣] . ومنه يتبين أن شاعرنا إنما كان يرد على هجاء الربيع ، وذم قومه ، وتهديدهم إياه .

ويبدأ الشماخ أبياته فى الربيع وقومه بتهكم مليح فيقول :

نبئت أَن ربيعاً أَنْ رعى إبلا يهدى إلى خناه ثانى الجيد[٤]

فهو هنا يعبر عن تهكمه ، واستخفافه بالربيع ، الذى لم يزد عن كونه راعى غنم ، أبطرته النعمة ، بعد أن أصبحت له إبل يرعاها بنفسه ، فخيل إليه أنه أصبح

---

(١) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٣٥٨ و ٤١٤ و ٤٧١ .
(٢) هما من زياداتنا (انظر : هامش الأرجوزة : ٢١) .
(٣) راجع : ص ١٢٢ من هذا الكتاب . (٤) الديوان : ٤/٩ .

ذا قدر ومكانة، ومن ثم ركبه الغرور ، وراح يتطاول على مقام من هم أرفع منه مقاماً ، ويحسب نفسه نداً لهم .

والتهكم والاستخفاف من أبلغ الهجاء وأملحه[1]. وتعبيره عن الهجو بقوله : « يهدى إلىّ خناه » تعبير موفق جميل .

ثم يأخذ فى ردعه وتهديده فيقول :

فإن كرهتَ هجائى فاجتنبْ سَخَطى ... لا يُدْرِكَنَّك تَفْرِيعِى وتَصْعِيدى
وإن أَبيْتَ فإنِّى واضعٌ قدمى ... على مَرَاغِم نفَّاخ اللَّغاديد
لا تحْسَبَنْ يا ابن عِلبَاءٍ مُقَارعتى ... بَرْدَ الصَّرِيح من الكُوم المَقَاحيد[2]

فهو يخاطب الربيع ويحذره من إثارة سخطه ، وينصحه بتجنب هجائه ، وإلا صب عليه من الهجاء ما يلصق به العار والمذلة ، وينهال عليه كالدواهى تلحقه فى كل حال ، ثم هو ينبهه إلى ما هو فيه من غفلة وجهالة وحمق ؛ فيذكر له أن مهاجاته لن تكون هينة مستساغة ، كاللبن الصريح الذى يشربه من تلك النوق السمينة التى يرعاها .

ثم يلتفت إلى قوم الربيع فيتهددهم — إن لم يكفوا شاعرهم وأنفسهم عن هجائه وتهديده — بأنه سوف يساجلهم هجاء يصميهم ويفحمهم ، وذلك لثقته بمقدرته التامة على عمل الشعر ، وحسن تصرفه فى فنونه ، كما ذكرنا من قبل .

وذلك قوله :

إن كنتم لستمُ ناهين شاعركم ... ولا تناهون عن شتمى وتهديدى
فاجروا الرِّهان ، فإنى ما بقيت لكم ... غَمْرُ البديهة عدَّاءُ القَرادِيد
محاذرُ السَّوْط خرَّاجٌ على مَهَلٍ ... من الأَضاميم سبَّاق المواخيد

ويعود إلى الربيع فيرميه بأنه غر لا خبرة له بالحياة والناس ، ولم تصقله التجارب ؛ ولذا يصور له جهله وحمقه أنه يستطيع أن ينال منه بهجائه ، وهو فى مأمن من الأذى والشر ، ولم يدرك أنه قادر على إيراده موارد الحتوف إن أراد :

---

(١) انظر العمدة : ٢/١٣٩ وما بعدها . (٢) الديوان : ٤/١٠ — ١٢ .

لا تحسبنِّى – وإن كنتَ امرءًا غَمِرًا كحيَّة الماءِ بين الطىِّ والشِّيد [١]

وأنه ما يمنعه من هجائه ، هجاء ممضًّا مؤلماً ، إلا خوفه من سلطان الخليفة عثمان بن عفان [٢] :

لولا ابنُ عفَّان والسلطان مُرتقبٌ أُوردتَ فَجًّا من اللَّعْباءِ جُلْمُود [٣]

ومع ذلك فقد رماه ببعض ما يكره ، مما كان الإسلام ينفر منه ، ويعاقب خلفاؤه الشعراء عليه ، ويعدونه من الهجاء المقذع [٤] . وذلك قوله :

فالحق ببَجْلَةَ ناسبْهم وكن معهم حتى يعيروك مجداً غير موطود
واترك تُراث خُفَافٍ إنهم هلكوا أو ائت حيًّا إلى رِعْلٍ ومَطْرُود
والقومُ آتُوك بَهْزٌ دون إخوتهم كالسيل يركب أطرافَ العَبَابيد [٥]

ومن هذا النحو فى الهجاء ، قوله فى رجل من تغلب ، يبدو أنه كان زوجاً أو مولى أو مجيراً لإحدى صاحباته :

تعوذُ بحبْل التغلبىِّ ولو دعتْ علىَّ بن مَسْعود لعزَّ نصيرها [٦]

ثم يعود فيؤكد حقارة شأن الربيع وهوان منزلته حتى بين قومه ، فيقول :

تلك امرؤُ القَيْس لا يُعطيك شاهدُها عمَّن تغيَّبَ منها بالمقاليد [٧]

وهذا لعمرى من أبرع الهجاء بسقوط الهمة ، وهوان المنزلة ، وضعة الشأن ، فالشاعر هنا يترك الفرصة للقارئ ، ليذهب كل مذهب ، فى تصوره للأسباب التى من أجلها يأبى من حضر من قوم المهجو تقليده أمرهم ، نيابة عمن تغيب من رؤسائهم وذوى القدر فيهم .

---

(١) الديوان : ٤/٢٥ . (٢) راجع : ص١٢٣ من هذا الكتاب .
(٣) الديوان : ٤/٢٦ .
(٤) روى أبو الفرج الأصفهانى : أن عمر بن الخطاب قال للحطيئة الشاعر : « فإياك والمقذع من القول . قال : وما المقذع ؟ قال : أن تخاير بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . قال : فأنت والله أهجى منى . . » (الأغانى : ٢/٥٣ . وانظر العمدة : ٢/١٣٨) .
(٥) الديوان : ٤/٢٧ – ٢٩ وانظر شرح الأبيات فى الهامش .
(٦) الديوان : ٧/١٥ . وانظر التعريف بعلى بن مسعود فى الهامش .
(٧) الديوان : ٤/٣٠ .

أما هجاؤه لأصهاره من بنى سليم ، فيرجع إلى ما كان بينه وبينهم ، بسبب امرأة منهم تزوجها الشاعر فخدعته ، وهربت منه ، وقد ذكرنا قصتها آنفاً[١] ، وقد رجحنا فى الديوان أن هجاء الربيع وقومه للشماخ إنما كان بسبب هذه المرأة أيضاً[٢] .

فهو يخاطب امرأة تدعى « أسماء » وهى من بنى سليم — فيقول :[٣]

وإنَّكِ من قوم تحنُّ نساؤُهم إلى الجانب الأَقصى حنين المنائح[٤]

وهذا من التعريض المؤلم بسلب العفة عن نساء بنى سليم أصهاره ؛ حيث إنهن دائمات الحنين إلى الغرباء ، ولا يقنعن بأزواجهن .

ثم يلتفت إلى قومها فيتهددهم بالهجاء الموجع فى قوله :

وإيّاكمُ لا أَخرقنَّ أَديمَكم بمُحتَفِلٍ فى أَيْبَس العَظْم جارح[٥]

فهو يحذرهم من لسانه الذى يشبه السيف الصقيل فى مضائه وحدته .

وهو يهجو أخاه جزء بن ضرار ؛ لأنه خان حق الأخوة حين انتهز فرصة غياب الشماخ ، وسارع إلى المرأة التى كان يحبها فتزوجها هو[٦] ، وذلك فى قصيدته[٧] التى لم يصل إلينا منها إلا قوله :

لنا صاحبٌ قد خان من أَجْل نَظْرة سقيمُ الفؤاد حُبُّ كَلْبَةَ شاغله[٨]

وهكذا نرى أن شاعرنا كان يتهدد خصومه بالهجاء أكثر مما كان يهجوهم بالفعل ؛ ويرجع ذلك إلى ما صرح به هو من خوفه الوقوع تحت طائلة العقاب ، من

---

(١) راجع : ص ٩١ — ٩٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر هامش مقدمة القصيدة ٤ — من الديوان .

(٣) راجع خبره معها : ص ٩٣ من هذا الكتاب .

(٤) الديوان : ٣/٩ .

(٥) نفس القصيدة فى البيت الزائد فى الهامش عقب شرح البيت — ٩ .

(٦) راجع تفصيل هذا الخبر : ص ١٠٦ و١٢٢ من هذا الكتاب .

(٧) أشار أبو الفرج الأصفهانى إلى هذه القصيدة فى ترجمته للشماخ (الأغانى : ٨/١٠٠)

(٨) ملحق الديوان : ٣٨ وانظر هامشه .

السلطة الإسلامية التى كانت ممثلة فى الخليفة إذ ذاك ، على الرغم من أنه لم يبدأ أحداً من خصومه بالهجاء أو التهديد ؛ إذ أن كل ما جاء له فى هذا الفن يصوره دائماً فى موقف المدافع عن نفسه ، لا المهاجم البادئ بالعدوان ، كما ذكرنا من قبل [١] .

وهو فى تهديده عنيف ، لا ينفك يخوف الخصوم من وقع هجائه الشديد .

أما هجاؤه فهو — على ندرته — يغلب عليه التهكم ، والسخرية ، والتعريض ، كما أنه يبعد عن البذاء والفحش — غالباً — ويهدف أكثر ما يهدف إلى إذلال المهجو ، وهذا هو أشد الهجاء الذى عناه خلف الأحمر بقوله : « أشد الهجاء أعفه وأصدقه » [٢] ، حتى ليصدق عليه قول أبى عمرو بن العلاء : « خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها » [٣] .

كما يلاحظ خلو هجائه من تناول معايب الجسد ، فهو يدور كله حول سلب المكارم ، التى كانت تعظمها البيئة العربية الجاهلية ، فمن هذه البيئة استمد معانى هجائه ، كما استمد منها من قبل معانى المديح والفخر .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هجاء الشماخ وتهديده ينبعث عن عاطفة شخصية ، أملتها عليه ظروفه الخاصة ، فهو بعيد كل البعد عن هذا اللون من الهجاء القبلى ، الذى كان ينزع إليه الشعراء دفاعاً عن القبيلة وتعصباً لها على أعدائها .

والشماخ سواء فى هجائه ، أو تهديده ، حانق غاضب ، ومن ثم جاءت ألفاظه شديدة الوقع قوية الأسر ، نارية محتدمة .

---

(١) راجع : ص ١٢١ — ١٢٣ من هذا الكتاب .

(٢) العمدة ١٣٩/٢ .

(٣) العمدة : ١٣٨/٢ .

(و) نظرات فى الحياة والناس

لا يسع الناظر فى الشعر العربى القديم بعامة ، والجاهلى منه بخاصة ، إلا أن يقف وقفة الإكبار والإعجاب ، أمام تلك النظرات الصائبة فى الحياة ، والخطرات الفكرية فى الوجود ، وأحوال الناس ، التى بثها بعض الشعراء فى ثنايا أشعارهم من أمثال : زهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة . . . وغيرهم [١] .

حقيقة إن هذه النظرات الفكرية لا تخرج فى جملتها عن أن تكون من البديهيات التى لا تبعد عن متناول الفطرة ، ونتاج التجربة والمشاهدة الحسية [٢] ، إلا أنها تدل على مدى ما كان يتمتع به هؤلاء القوم من مشاعر حساسة ، ومدارك مرهفة ، وأذهان صافية ، وذكاء وفطنة ، وقد أعانهم على صوغها فى إيجاز بارع لغة تمكنوا منها ، وفهموا دقائق أسرارها ، وهى لغة شعرية ، غنية بما فيها من دقة التعبير ، وجرس الألفاظ ، وتنوع الأساليب . . .

كان شاعرنا واحداً من هؤلاء الشعراء الذين رزقوا مرهف الحس ، وثاقب النظر ، وسديد الرأى ، فضلا عن شاعرية متدفقة ، وحياة ، طويلة ، مَرَّ فيها — بلا شك — بالعديد من التجارب ، وأصاب خلالها خبرة بكثير من أحوال الناس والحياة .

بيد أن ما وقع لنا من شعره الذى يعبر فيه عن تلك التجارب وهذه الخبرة قليل ، لا يعدو أبياتاً معدودة تخللت أشعاره وأراجيزه فى الأغراض المختلفة ، ومع ذلك فهى تدل على صدق نظره ، وعميق تأثره بتجارب حياته .

عاش الشماخ حياة شاقة ، ذاق فيها كثيراً من شظف العيش ، ومن هموم تدبير المعاش ، وتحمل تبعة السعى فى سبيل الرزق مُذْ فقد والده وهو لا يزال طفلا [٣] صغيراً ، وتعرض خلال فترات من حياته إلى هموم الدّين وذله .

فهو يشكو ثقل الدين الذى راح يلتمس من يعينه على قضائه ، فلم يجد من

---

(١) انظر : الحكم والأمثال (حنا الفاخورى : سلسلة فنون الأدب العربى — دار المعارف بمصر — بدون تاريخ) : ١٩ — ٢٧ .

(٢) راجع : ص ٤٧ من هذا الكتاب .

(٣) راجع : ص ٨٠ — ٨١ من هذا الكتاب .

يمد له يد المساعدة ، بل لقد ضن أخوه « يزيد » — مزرد — عليه بماله وهو أقرب الناس إليه [١] .

وقد علمته هذه التجارب أن مال المرء هو درعه التى تقيه شر الحاجة إلى سؤال الناس ، ويقف إلى جانبه فى الملمات ، ويستعين به على مشقات العيش ، ومن ثم أطلقها موعظة حسنة ، وحكمة على الأيام سائرة ، يتمثل بها فى كل زمان ومكان ويستفيد من هديها كل إنسان ، فقال :

لمالُ المرءِ يُصلحه فَيُغْنى مَفَاقِرَه أَعَفُّ من القُنوعِ
يسدُّ به نوائبَ تعتَريه من الأَيام كالنَّهَل الشُّرُوع [٢]

كذلك أدرك بفطنته وتجربته أن الحياة كثيراً ما تقف حائلا دون رغبات النفس ، وآمالها وطموحها ، وأن الرياح قد تأتى بما لا يشتهى السفن ، وأن الخير كل الخير ألا يحاول الإنسان التمادى مع النفس فى رغباتها ، التى لا سبيل إلى تحقيقها ، وأن العزيمة القوية هى الدواء الناجع لصرف النفس عما تتعلق به من مثل هذه الآمال ، وهو يعبر عن ذلك فى لفظ موجز ، وعبارة واضحة بليغة ، فيقول :

ولم يُسْلِ أَمْرًا مثلُ أَمْرِ صريمةٍ إذا حاجةٌ فى النفس طال اعْتِراضُها [٣]

وقد أفادته تجارب الحياة خبرة فى معاملة الناس ، ومصانعتهم ، ومجاراتهم فى نفاقهم اتقاء لشرهم ، أو تجنباً لإثارتهم ، أو تقديراً لظروفه معهم ، وفى ذلك يقول :

أُجاملُ أَقواماً حياءً وقد أَرى صدورهم تغلى علىَّ مِرَاضُها [٤]

وهو بهذا يعبر عن لون من السلوك لا يزال مشاهداً حتى اليوم ، فكم من الناس تضطرهم ظروف حياتهم إلى تبادل المجاملة مع أناس مع علمهم بأن صدورهم تغلى عليهم حقداً وعداوة .

---

(١) راجع قوله فى ذلك : الديوان : ٥/٨ — ١٠ .
(٢) الديوان : ١٠/٤ — ٥ ، وانظر بلوغ الأرب (الألوسى) ٣/١٤٦ .
(٣) الديوان : ٩/١٥ . (٤) نفس القصيدة : ١٦ .

هكذا علمته الحياة قديماً ، وهى لم تزل تلقن الكثيرين من الناس الدرس نفسه على مر الزمان ، فيطالعهم قول الشماخ ، مثلا سائراً ينطبق على حالهم فى زمانهم ، كما انطبق على حال غيرهم من قبلهم .

روى صاحب الأغانى عمن نقل عنه : « قال معاوية لعبد الله بن الزبير وهو عنده بالمدينة فى أناس : يا ابن الزبير ، ألا تعذرنى فى حسن بن على ، ما رأيته مذ قدمت المدينة إلا مرة ، قال : دع عنك حسناً ، فأنت والله وهو كما قال الشماخ :

أجامل أقواماً حياء . . . . . « البيت »[١] .

وهذا لعمرى أشبه بالمصانعة التى عناها زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ومن لم يصانع فى أمورٍ كثيرة يضرّس بأنياب ويوطَأْ بِمَنْسم[٢]

ولشاعرنا أمثال أخرى سائرة ، ضمنها خلاصة خبرته بالناس ، وأرسلها عظات بالغات ، وأقوالا محكمة . فمن ذلك قوله فى رجز له :

ليْسَ بما ليْس به بَأْسٌ بَاسْ
ولا يضرُّ البَرَّ ما قال الناسْ
وإنه قبل اطِّلاعِ إيناسْ[٣]

والحق ما قال ؛ إن الناس لا يسلم من ألسنتهم بر ولا فاجر ؛ ولذا فالعاقل من لايأبه بقول الناس فيه، ما دام هوفى نفسه خيراً صالحاً ، فالناس كثيراً ما يطلقون أحكامهم على الآخرين دون أن تكون هذه الأحكام مستندة إلى نظر أو اختبار .

---

(١) الأغانى : ٨/١٠٤ .

(٢) ديوان زهير : ص ٨٧ . يقول : ومن لم يدار الناس فى كثير من الأمور قهروه وأذلوه، كالذى يضرس بالناب ، ويوطأ بالمنسم ، والضرس : العض على الشىء بالضرس ، والتضريس مبالغة ، والمنسم للبعير بمنزلة السنبك للفرس .

(٣) أراجيز الديوان : ٢٥/٧ — ٩ . وانظر : الشعر والشعراء : ١/٢٧٧ . والإصابة : ٣/٢١١ . والبيت الأخير مثل اقتبسه الشماخ من كلمة قالها قيس بن زهير العبسى يوم داحس والغبراء . (انظرها فى هامش البيت فى الديوان) .

ولله دره إذ يعبر عن قصر فترة الشباب، من عمر كل إنسان ، بقوله يتحسر على شبابه الذى ولى مسرعاً :

كأن الشباب كان رَوْحَةَ راكب قضى أَرَباً من أَهْلِ سُقْفٍ لغَضْوَرا (١)

هكذا أيام الشباب ، حلوة ، معطرة الأنفاس ، تسكرنا بخمر مذاقها ، ثم نصحو فإذا الشباب قد ولى ، وكأننا لم ننعم به إلا ساعة من زمان ، فننقلب نبكيه ، ونبلل بدموعنا طيب ثراه ، ما بقيت فينا حياة .

كذلك تمثل الشماخ بأحوال السابقين فى شعره، مستفيداً من تجاربهم، مسهماً فى إذاعة هذه التجارب على الناس ؛ ليفيدوا منها كما أفاد ، من ذلك قوله :

أَوَاعَدْتَنِى مالا أُحاوِلُ نفعَه مواعيدَ عُرقُوب أَخاه بيثرب (٢)

وقوله حين فارقته زوجته السلمية (٣) هاربة، وادعت أنه ضربها وكسر يدها ، يدافع عن حقه فى تأديب زوجته حين نشزت به ، حتى لا تفعل به ما فعلته امرأة الكاهلى بزوجها حين فركته ، واحتالت حتى سقته السُّمّ :

ولم أَكُ مثلَ الكَاهِلِىّ وعِرْسِه سقتْه على لُوحٍ دماءَ الذَّرَارِح
وقالتْ : شرابٌ باردٌ قد جَدَحْتُه ولم يَدْرِ ما خاضتْ له بالمَجادِح (٤)

هذه نظرات للشماخ فى الحياة والناس ، وهى فى مجموعها ، مستمدة من تجارب حياته دالة على حنكته ، وصدق نظره ، وهو يجرى فى التعبير عنها على سنن سابقيه ، من حيث إيجاز اللفظ ، ووضوح المعنى ، وجودة العبارة ، وإصابة القصد ، مع الاعتماد على التشبيه والتمثيل .

* * *

وقبل أن نختم الكلام على فنون شعر الشماخ ، يجدر بنا أن نشير بكلمة إلى ماله من شعر فى الرثاء .

ليس لدينا للشماخ فى الرثاء إلا أربعة أبيات ، وكلها فى رثاء بكير بن عبد الله

---

(١) الديوان : ٧/٥ .
(٢) ملحق الديوان : ١/٦ .
(٣) راجع : ص ٩١ — ٩٤ من هذا الكتاب .
(٤) الديوان : ٤/٣ — ٥ .

الليثى ، أحد قواد المسلمين فى فتوح أرمينية وآذربيجان[١] ، أما ما روى فى الحماسة من رثاء عمر بن الخطاب منسوباً للشماخ ، فقد صحح أكثر الرواة من القدماء عدم نسبته إليه [٢] .

وقصيدة الشماخ التى يرثى فيها بكير بن عبد الله ، يبدؤها بالنسيب فى بيتين ، ثم يمهد لرثائه ببيتين آخرين فيقول :

أَلا يا اصْبحَانى قبل غارة سِنْجَالِ ... وقبل منايا باكرات وآجال
وقبل إختلاف القوْم من بين سالبٍ ... وآخر مسلوبٍ هَوَى بين أَبْطال

ثم يأخذ فى رثائه فيقول :

لقد غادرتْ خَيلٌ بمَوقان أَسْلَمتْ ... بُكَيْرَ بنى الشُّداخ فارسَ أَطْلَالِ
فتًى كان يروى سيفه وسنانه ... من العلق الآنى لدى المُجْحَر التَّالى
وقلت لهم : خُذُوا له برماحكم ... بنازحة العُوَّاد خَفَّاقة الآل
فبَكَّوْا قليلا ثم ولَّوْا وودَّعُوا ... وقد غادروا فى اللَّحْد لحْمِى وأَوصالى [٣]

ثم ينصرف إلى الفخر بشجاعته وفروسيته فى حرب موقان .

وهذا الرثاء مقتضب موجز ، إلا أنه يعبر عن حزن عميق ، وعاطفة ملتاعة وتتضح هذه العاطفة الحزينة ، والأسى العميق ، أكثر ما تتضح فى البيت الأخير ، الذى يعبر فيه الشاعر عن الفرق بين وقع الكارثة فى نفسه ، ووقعها فى نفوس الآخرين من الرفاق فى الجهاد . أما هم فبكوا قليلا ، وترحموا على الفقيد مودعين ، ثم لم يلبثوا أن انصرفوا إلى شئونهم . وأما الشاعر فكان أعمق حزناً ، وأشد إحساساً بالمصيبة ، وأكثر وفاء للفقيد ، فكأنما المأساة مأساته ، وجدث الفقيد جدثه ، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الشماخ تعمق التجربة ، فرأى مصيره فى مصير الفقيد ، وصور فى حزنه عليه حزنه على نفسه ، « فالقصة واحدة ، وكل يوم يسقط

---

(١) راجع ترجمته وظروف اتصال الشماخ به : ص ١٥٠ — ١٥١ من هذا الكتاب .
(٢) راجع ملحق الديوان : ٣١ وانظر الكلام على نسبتها فى الهامش .
(٣) ملحق الديوان : ٣٩ ، والبيتان الأخيران رويا مقدمين فى الترتيب على الأولين ، وأخرناهما هنا لمناسبة المعنى .

فصل من فصولها ومن يبكى اليوم غيره ، يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير »[١] .

ولنا بعد ذلك على هذا الرثاء ملاحظات :

١ — بدأ مرثيته بالنسيب على خلاف ما جرت به عادة الشعراء فى الجاهلية ، يقول ابن رشيق : « وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبى — وكان علامة — لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أَرثَّ جديدُ الحبْل من أُمِّ معبد بعافيةٍ وأَخْلفت كلَّ موْعد[٢]

ويقول ابن رشيق أيضاً : « . . الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة ، والاهتمام بالمصيبة . . » [٣] .

وعلى أيه حال فإن الشماخ لم يطل هذا النسيب ، وانتقل إلى ما يمهد لرثائه ، ببيان أن المنية كأس دائر على الأبطال فى الحروب ، على أن افتتاحه لمرثيته هذه بالنسيب ، وانصرافه بعد الرثاء إلى الفخر بنفسه ، قد يكون ذلك راجعاً إلى جفاء إعرابيته .

٢ — رثاؤه كالرثاء الجاهلى ، يعتمد على تعديد المناقب التى كان يحترمها العربى القديم ، ويجلها فى الرجل ، كالشجاعة ، والفروسية ، والبلاء فى الحرب . . . حتى نكاد لا نعرف فيه رثاء المسلم المجاهد لمسلم مجاهد ، وإنما هو يتحدث فيه حديث الجاهليين عن موتاهم ، فلم يتأثر رثاؤه — ككل شعره — بالمعانى والخلال الإسلامية الجديدة ، كالتقوى ، وإخلاص الوجه لله ، والجهاد فى سبيل نشر الدعوة . . . إلخ .

ومن ثم ، فنحن نرجح أن ما روى من أبيات فى رثاء الخليفة عمر بن الخطاب منسوباً إليه ، ليست له فى الحقيقة ؛ إذ أن الرثاء فيها إسلامى ، ولم نر الشماخ قد تأثر بالمعانى الإسلامية فى شىء من شعره .

ولو لم يذكر فى هذا الرثاء «بُكيراً» و«آذر بيجان» و «موقان» لحسبنا أنه يرثى

---

(١) الرثاء (شوقى ضيف — سلسلة فنون الأدب العربى) : ١١ .

(٢) العمدة : ١٢١/٢ . (٣) نفس المصدر : ١٢٢/٢ .

فارساً من فرسان الجاهلية لا قائداً من قواد المسلمين . انظر إلى قوله :

فتى كان يروى سيفه وسنانه من العلق الآنى لدى المجحر التالى

إنه نفس المعنى الذى مدح به أحد ممدوحيه — فيما سبق — [١] كما يمدح أى شاعر جاهلى شريفاً أو سيداً جاهلياً وذلك قوله :

فتى كان يروى سيفه وسنانه ويضرب فى رأس الكمى المدجَّج

وكان الأجدر به أن يبكى فى مرثيه البطولة والفداء فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وأن يبين مدى خسارة الإسلام بفقده ، ونحو ذلك مما يعبر عن الوجدان الجماعى . الذى لا نجد له صدى فى شعر الشماخ كله تقريباً . كما ذكرنا آنفاً .

٣ — جاء رثاء الشماخ فى بحر الطويل ، وهو أنسب البحور — كما يقولون — لمواقف الجد والجلالة والتأثر العميق[٢] .

٢ — ملاحظات على النواحى الفنية فى شعره بعامة

حرصنا فى دراستنا السابقة لفنون شعر الشماخ ، على أن نورد بعض الخصائص البارزة التى تتصل بأسلوبه ، ومذهبه الفنى الخاص بكل فن من هذه الفنون ، عقب الكلام عليه .

وحديثنا هنا يتناول بعض الخصائص الفنية المشتركة — إلى حد ما — فى شعره بعامة .

وهذه الخصائص — فى جملتها — إنما هى أثر من آثار بيئة شاعرنا المعرقة فى البداوة والإعرابية فضلا عن تدفقه بالشعر بديهة وارتجالا [٣] .

١ — وتتجلى بداوة الشماخ وإعرابيته البعيدة عن صقل الحضارة فى لغة شعره ، فألفاظه متينة رصينة ، يكثر فيها الغريب كثرة قل أن تجد لها نظيراً عند غيره من

---

(١) راجع : ص ٢٤٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : ١/٣٩٢ وما بعدها .

(٣) راجع : ص ١٦١ — ١٦٢ من هذا الكتاب .

شعراء البادية فى عصره، فقد نقرأ القصيدة من قصائده دون أن نفهم منها إلا القليل، مما يضطرنا إلى الاستعانة بمعجمات اللغة على فهم الكثير من ألفاظه ، ولا بد لنا مع ذلك من إدمان قراءة شعره حتى نتعود على أساليبه ، ونتمكن من تذوقه .

ومع أن لغة الشعر كانت قد تطورت فى عصر الشماخ ، وتحضرت بعض التحضر ، وأخذت تتحلل من الغريب ، والقيود البدوية إلى حد ما [١] ، فإن لغة الشماخ لم تتأثر كثيراً بهذا التطور وظلت صعبة المرام ؛ وذلك لغلبة البداوة على طبعه ، وقلة اتصاله بالبيئات المتطورة قبيل الإسلام وبعده .

وغنى عن البيان أن أكثر ما نراه الآن من الغريب فى شعره ، كان مألوفاً مستعملا لدى سابقيه ومعاصريه من الشعراء ، وخاصة شعراء البادية من أمثال : لبيد، وكعب ابن زهير ، وغيرهما .

بيد أن الشماخ كان فيما يبدو أكثر تأثراً بجفاء البادية وخشونتها ، وظهر ذلك أكثر ما ظهر فى لغة شعره ، فجاءت أكثر كزازة فى الألفاظ ، ووعورة فى الخطاب .

وفى ذلك يقول ابن سلام : « فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر كلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً »[٢] .

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن شيوع الغريب من الألفاظ يتفاوت فى شعر الشماخ قلة وكثرة ، وهو أكثر ما يكون شيوعاً فى فن الوصف حتى يكاد لا يخلو البيت من لفظ أو أكثر من هذه الألفاظ ، بل قد نقرأ البيت فلا نعرف من ألفاظه إلا القليل الذى لا يغنى شيئاً فى فهم المراد . من مثل قوله :

هَيْقٌ هِزَفّ وزَفًّا نِيَّةٌ مرَطَى زَعراءُ ريشُ ذُنَابَاها هراميل[٣]

وقوله فى وصف الناقة :

جُمالِيَّةٌ فى مشيها عَجْرَفِيَّةٌ إذا العِرْمِسُ الوجْنَاء طال اختِفاضُها[٤]

---

(١) انظر : فى الأدب الجاهلى : ٢٧٠ و ٢٩٩ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ١١٠ . متون الشعر : ألفاظه وصياغته . الكزازة : اليبس والتقبض : يعنى : أن ألفاظه وعباراته غير سهلة ولا لينة فهى تحتاج إلى بسط .

(٣) الديوان : ١٤/١٧ . (٤) الديوان : ٩/٦ .

وقوله فى وصف حمار الوحش :

مُفِجٌّ الحَوَامِى عن نُسُورٍ كأنها نَوَى القَسْب تَرَّتْ عن جَرِيمٍ مُلَجْلَج [١]

وقوله فى وصف آثار الديار المقفرة :

وإرْثُ رمادٍ كالحمامة ماثلٌ ونؤيَيْن فى مظلومتَيْن كُدَاهما [٢]

وقوله فى وصف الصحراء :

بمفطُوحة الأطراف جَدْبٍ كأنما توقُّدها فى الصَّخْر نيران عَرْفَجِ [٣]

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وفيما سقناه من شعره فى الوصف نماذج عدة يمكن الرجوع إليها ، ونمضى فى فنونه الأخرى فنصطدم بكثير من هذه الألفاظ الحوشية ، حتى فى النسيب ، على نحو ما مر بنا من نماذج شعره ورجزه فى الأغراض المختلفة ، وإن لم تصل فى هذه الأغراض إلى الحد الذى نزاه من شيوعها فى فن الوصف خاصة .

٢ — وعبارة الشماخ — بعامة — شديدة كألفاظه ، ولكنها فى جملتها محكمة خالية من التكلف والمعاناة يفيض بها طبعه البدوى ، وتمده حافظة قوية ، مزودة بذخائر اللغة ودقائقها .

على أنها لم تخل تماماً من التعقيد والالتواء ، إلا أن ذلك قليل فى شعره . من مثل قوله فى وصف الحمر الوحشية :

فظلَّتْ بيمئودٍ كأن عيونَها إلى الشمس — هل تدنو — رَكِيٌّ نواكِزُ [٤]

أراد : كأن عيونها ركى نواكز ، وهى ناظرة إلى الشمس تنتظر غروبها ، فعقد العبارة بالفصل الطويل بين اسم « كأن » وخبرها ، وبهذا الاختصار الشديد فى قوله : « إلى الشمس هل تدنو »

وقوله فى إحدى صاحباته :

وتشكو بعين ما أَكَلَّتْ ركابها وقيلُ المنادى : أصبح القومُ أدلج [٥]

---

(١) الديوان : ٢/٤٨ .
(٢) الديوان : ٣/١٧ .
(٣) الديوان : ٢/٥٢ .
(٤) الديوان : ٨/٧ .
(٥) الديوان : ٢/١٧ .

فخفاء المراد بـ « ما » فى الشطر الأول ، وغموض مرجع الضمير فى قوله : « أكلت » والحاجة إلى التأويل فى قوله : « أصبح القوم أدلج » كل ذلك أدى إلى غموض المعنى ، لغموض التعبير عنه .

هذا إلى ما فى بعض عباراته من ضعف فى النسج ، وركاكة فى الأسلوب من مثل قوله :

وعوجاءَ مِجْذَامٍ وأَمر صَرِيمَةٍ تركتُ بها الشكَّ الذى هو عاجزُ [١]

فقوله : « الذى هو عاجز » تركيب ضعيف ركيك لا يصلح للشعر .

وقوله — وقد طلبت إليه امرأة تدعى « جونة » أن يذكر بناتها فى شعره ليخطبن :

ثلاثُ غمامات تَنَصَّبْن فى الضُّحى طِوَال الذُّرَى هبَّتْ لهن جَنُوبُ

فتلك اللواتى عند جَوْنَةَ إننى صدوق وبعض الناعتين كذوب [٢]

فانظر إلى هذا التكرار الممجوج فى اسم الإشارة !! وإلى قوله : « عند جونة » الذى هو أقرب إلى العامية منه إلى لغة الشعر ، والحق أن هذا شعر لا روح فيه ولا جمال ، لما فيه من فهاهة فى المعنى ، وهلهلة فى العبارة .

ومع ذلك فالقارئ لشعره لا يجد أمثلة كثيرة لمثل هذه العيوب فى العبارة ، فهى من الندرة بحيث لا تقدح فيما سبق أن ذكرناه من رصانة عبارته ، وإحكامها ، وشدة أسرها .

والإيجاز مع إصابة المعنى من المميزات البارزة فى عبارات الشماخ ، وقد مرت بنا أمثلة عديدة لهذا النحو من الأسلوب ، فى دراستنا لشعره فى الأغراض المختلفة [٣] .

كذلك برع الشماخ فى التعبير بكثير من الألفاظ والعبارات ، التى تطلق لخيال القارئ العنان ليحلق مع الشاعر ، ويذهب فى تخيل المعنى كل مذهب ، من ذلك قوله يصف أثر أظلاف الظليم والنعامة فى الأرض حين يشتدان فى العدو :

إذا استهلاَّ بِشُؤْبُوبٍ فقد فُعِلت بما أَصابا من الأَرض الأَفاعيل [٤]

---

(١) الديوان : ٤/٨ .
(٢) ملحق الديوان : ١/٥ — ٢ .
(٣) انظر — مثلا — ص ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ . من هذا الكتاب.
(٤) الديوان : ٢٠/١٤ .

فشاعرنا هنا لم يتجاوز الإشارة إلى التبيين ،والتلميح إلى التصريح ، فقال : « فقد فعلت بما أصابا من الأرض الأفاعيل » ولم يبين كيف كانت هذه الأفاعيل ، فترك بذلك مضطرباً واسعاً من الخيال ؛ ليتصور ما فعلته أظلاف هذين الطائرين بالأرض حين جدا فى العدو .

وقد سبقت أمثلة أخرى على ذلك لا داعى لتكرارها هنا (١) .

هذا، والصنعة فى عبارة شعره تختفى وراء الطبع حتى ليظن أنها غير موجودة فيه ، وذلك لملابسة الطبع للصنعة فى شعره ملابسة تخفيها ، وتموهها . من ذلك قوله فى وصف إحدى صاحباته :

هضيم الحَشَا لايَمْلأُ الكفُّ خَصْرُها ويُمْلأُ منها كلُّ حِجْل ودُمْلُج (٢)

فقوله : « لا يملأ » و« يملأ » من ألوان البديع الذى يسمى «السلب والإيجاب» (٣)

وقوله فى وصف ناقته :

كادتْ تُساقِطُنى والرَّحْلَ أَن نطقتْ حمامةٌ فدعتْ سَاقاً على ساق (٤)

فقوله : « ساقاً على ساق » من البديع الذى سماه أبو هلال العسكرى « التعطف » (٥) .

وقوله فى صاحبته « أروى » :

وما أَرْوَى – وإن كرُمتْ علينا – بأَدْنى من مُوَقَّفَةٍ حَرُون (٦)

فقوله : « أروى » المذكور فى البيت هو المرأة ، وقوله : « موقفة حرون » يشير بها إلى أروى الأوعال ، وأراد أن هذه المرأة التى اسمها أروى ، ليست بأقرب من التى فى الجبال ، لكنه أعرض عن ذكرها ، وقد عد بعضهم هذا من « تجنيس

---

(١) انظر – مثلا – ص ٢٠٠ – ٢٠١ من هذا الكتاب .

(٢) الديوان : ٨/٢ . (٣) انظر : سر الفصاحة : ١٩٣ .

(٤) الديوان : ١٢/١٢ .

(٥) التعطف عند أبى هلال « أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف . .» (انظر : الصناعتين ٣٣٥) وهذا اللون من البديع هو المعروف بالتجنيس أو الجناس (انظر : العمدة : ٢٢٠/١ وما بعدها) .

(٦) الديوان : ٢/١٨ .

الإشارة »[١] ، وعده بعضهم من « التجانس بالمعنى »[٢] .

وقوله فى وصف حمار الوحش :

متى ما تقعْ أَرْسَاغُه مطمئنةً على حَجَرٍ يرفضُّ أو يَتَدَحرَجِ

فقد روى قدامة هذا البيت فيما أسماه « صحة التقسيم » قال : « فليس فى أمر الوطء الشديد إلا أن يوجد الذى يوطأ عليه رخواً فيرض ، أو صلباً فيدفع [٣] » . إلى غير ذلك مما جاء فى شعره عفو الخاطر ، لا تحس فيه تكلفاً ، ولا صنعة شأنه فى ذلك شأن الفحول المطبوعين ، من قدامى الشعراء الجاهليين والمخضرمين .

٣ — وإذا كان شعر الشماخ يمثل حياة البادية فى شكله ، فإنه كذلك يمثلها فى مضمونه ، فمعانيه مستمدة من واقع هذه الحياة ، بمشاهدها وطبيعتها ، وحياة أهلها ، ومثلهم ، وتقاليدهم ، ومعارفهم . . . إلى غير ذلك مما يتصل بهم وببيئتهم .

ونكاد لانجد فى شعره كله من المعانى والصور ، ما يخرج عن حدود البادية ، اللهم إلا فى القليل النادر الذى ربما استفاده خلال رحلاته إلى أطراف البادية ، وبعض المواطن الحضارية التى كانت تقع على حدودها ، أو استمده مما كان يجتلب إليها من خارجها .

من ذلك قوله يمدح قوم عرابة الأوسى :

رماحُ رُدَيْنَةٍ وبِحَارُ لُجٍّ غَوارِبُها تَقَاذَفُ بالسَّفين [٤]

فالبحار والسفن ليست من مشاهد البادية ، إلا أن تمثيل معنى الكرم بالبحر شائع فى الشعر الجاهلى ، فربما استفاده شاعرنا من إطاره الثقافى ، على أن فى شعره ما يدل على أنه بلغ فى إحدى رحلاته على ناقته شط الفرات [٥] ، فلعله شاهد ما قد يكون فيه من السفن .

وقوله من أبياته فى القوس :

---

(١) انظر : الطراز : ٣٧٢/٢ .
(٢) انظر : نهاية الأرب (للنويرى) : ٩٨/٧ .
(٣) نقد الشعر : ١٣١ .
(٤) الديوان : ٢٧/١٨ .
(٥) انظر : الديوان : ٣٧/٥ — ٣٨ .

فقال له : هل تشتريها فإنها تباع بما بيع التِّلادُ - لَ الحرائزُ
فقال : إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربعٌ من السِّيرَاءِ أَوْ أَوَاقٍ نواجزُ
ثمانٍ من الكُورِيّ حُمْرٌ كأَنَّها من الجمر ما ذكّى على النار خابزُ
وبُرْدَانِ من خَالٍ وتِسْعُون درهِماً ومَعْذاك مقروظٌ من الجلد ماعِزُ (١)

فتلك الثياب الحريرية ،والدنانير الذهبية ، والدراهم الفضية ، كانت من الأشياء التى تجتلب إلى أسواق الجزيرة العربية من خارجها ، وكان البدو يؤمون هذه الأسواق فى بعض شئونهم ، فتقع عيونهم عليها ،ومن ثم عرفوها وذكرها الشعراء منهم فى أشعارهم .

ومما قد يرجع إلى مشاهداته أثناء رحلاته إلى البيئات المجاورة للبادية ، قوله فى وصف الصحراء :

ودَاوِيَّةٍ قفر تمَشَّى نعامُها كمشى النَّصارى فى خفاف اليرندج (٢)

فهذا النوع من الخفاف لم تكن تلبسه العرب ، وإنما كانوا يلبسون الأدم .

وقوله يصف عينى ناقته :

ترى الغيوبَ بمرآتين من ذهبٍ صَلْتَيْن ضاحيهما بالشمس مصقول (٣)

وقوله يصف وجه ناقته :

فى جَانِبَىْ درةٍ زهْراءَ جاءَ بها مُحَمْلَجٌ من رجال الهند مجدول (٤)

وقوله فى إحدى صاحباته :

كأَن حَصَاناً فَضَّها القَيْنُ غُدْوَةً لدى حيثُ يُلْقَى بالفِنَاءِ حصيرُها (٥)

وقوله فى وصف القوس :

كأَن عليها زعفرانا تُميره خَوازنُ عطَّارٍ يَمَانٍ كوانزُ (٦)

---

(١) الديوان : ٨/٢٩ — ٣٢ .
(٢) الديوان : ٢/٣٠ وانظر شرحه فى الهامش .
(٣) الديوان : ١٤/٨ .
(٤) نفس القصيدة : ١٠ .
(٥) الديوان : ٧/١٠ .
(٦) الديوان : ٨/٣٩ .

ومثل هذه المعانى والتشابيه النادرة فى شعره ، لا يقدح فيما سبق أن ذكرناه من أن شعره لم يخرج فى مضمونه عن حدود الحياة البدوية ، وفيما قدمناه من نماذج شعره فى الموضوعات المختلفة ما يؤيد ذلك .

وإذا كانت معانيه مستمدة من بيئته البدوية ، فقد خلت — فى جملتها — من التعمق والتفلسف والغلو ، الذى يخرجها عن حد التعقل ومألوف الطبع .

ولسنا ننكر أنه بالغ فى قليل من المعانى ، ولكنه مع ذلك لم يخرج فى مبالغته عن دائرة الإمكان العادى أو العقلى .

فمن ذلك قوله يصف دقة خصر إحدى صاحباته :

هضيم الحَشَا لا يملأُ الكفَّ خَصْرُها ويُملأُ منها كلُّ حِجْلٍ ودُمْلُج

فهذه المبالغة — وإن كانت بعيدة التصور إلى حد ما — إلا أنها مما يستملح فى مجال الحديث عن النساء ، والتغزل بهن .

وقوله فى طيب رائحة صاحبته وإن لم تتطيب :

وكانت على العِلاَّتِ لو أنَّ مُدْنَفاً تداوى بريَّاها شفَاهُ نشُورها [1]

وهذا المعنى أقرب إلى العقل من قول الأعشى فى جمال صاحبته :

لو أسندت ميْتاً إلى نحرها عاشَ ولم ينْقل إلى قابر

حتى يقول الناسُ ممَّا رأَوْا يا عجباً للميت الناشر [2]

فبينما ينسب الشماخ إلى صاحبته أنها تشفى العليل بطيب رائحتها ، نرى الأعشى يذهب إلى أن صاحبته تحيى الميت ، حين يستند إلى نحرها ، فهى إذن تفعل المعجزات بجمالها وسحرها . ويصل جميل بن معمر بالمعنى إلى غاية المبالغة فيقول :

ولو أن داع منك يدعو جِنَازتى وكنت على أيدى الرجال حييتُ [3]

ومثله قول توبة بن الحمير فى ليلى الأخيلية :

---

(١) الديوان : ٧ / ١٤ .

(٢) ديوان الأعشى : القصيدة ١٨ البيتين : ١٢ — ١٣ .

(٣) ديوان جميل (بيروت سنة ١٩٦١) ص ٩٧ .

ولو أن ليْلى الأَخيليَّة سلَّمتْ عليَّ ودونى جَنْدلٌ وصفائح
لسلَّمتُ تسليم البشاشة أو زَقَا إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

ومن مبالغات الشماخ قوله يصور ضمور الأتن :

كَمِشْحَاجٍ أَضَرَّ بخَانِفَاتٍ ذَوَابل مثل أَخلاق النُّسُوع (١)

وقوله يصف الأتن أيضاً بالدقة والصلابة :

كقُضْبِ النَّبْع من نُحُصٍ أوابٍ صَوَتْ منهن أَقراطُ الضُّروع (٢)

إلا أنه يخفف من المبالغة فى هذين البيتين الإتيان بها على أسلوب التشبيه .

وقوله فى وصف ناقته :

مَرُوحٍ تغْتَلِى بالبيد حرفٍ تكاد تطيرُ من رَأْى القطيع (٣)

ويخفف من المبالغة فى وصف سرعة ناقته هنا التعبير بقوله : « تكاد » .

٤ — الإكثار من الاعتماد على الصورة كوسيلة لتوضيح معانيه فى مختلف الأغراض وإبرازها ، أو لجعلها أشد تأثيراً ، أو أكثر طرافة وجمالا .

وصوره كذلك تمثل واقع البيئة البدوية من حوله ، فمن طبيعة هذه البيئة ومشاهدها استمد عناصر صوره المختلفة ، فى الوصف والنسيب والمديح والهجاء ... وغيرها من أغراض شعره .

وشعر الشماخ فى ذلك كالشعر الجاهلى الذى يدين للصحراء وطبيعتها بكل ما فيه من تشبيهات وخيال وصور (٤) .

على أنه نادراً ما كان يستمد صوره من عناصر غير بدوية ، وقد أوردنا بعضاً من هذه الصور فيما سبق (٥) . ومن ذلك قوله يصف رسماً دارساً :

كما خَطَّ عِبْرانيَّةً بيمِينه بتَيْمَاءَ حَبْرٌ ثم عرَّض أَسْطرا (٦)

---

(١) الديوان : ١٠/٢١ .
(٢) نفس القصيدة : ٢٤ .
(٣) نفس القصيدة : ١٨ .
(٤) انظر : النابغة الذبيانى : ص٥٥—٥٦ .
(٥) راجع : ص ٢٦٩ من هذا الكتاب .
(٦) الديوان : ٥/٢ .

وقوله يصور انبثاق الصبح وسط ظلام الليل :

إذا ما الصُّبْحُ شق الليلَ عنه أَشَقَّ كمَفْرق الرأس الدهين[١]

وقوله يشبه النجم بالقناديل الرومية فى رجز له:

والنَّجْمُ مثلُ الصَّمْج الرُّومِيَّات[٢]

وقوله يشبه وجهه فى بياضه بالصحيفة :

كأَن حُرَّ الوجه منه قِرْطَاسْ[٣]

وقد سبقت الإشارة إلى أن مثل هذه العناصر ، قد استفادها الشاعر خلال رحلاته إلى البيئات المجاورة للبادية .

وأكثر صوره الشعرية ملتصقة بالمظاهر المادية التى تقع عليها حواسه ، أو بعبارة أخرى كان خياله فيها شديد الارتباط بحسه ، ويصدق ذلك على ما كان منها تصويراً للأفكار والمشاعر . فهو لا يعبر عن الشجاعة أو الكرم مثلا باعتباره فكرة مجردة معنوية لا ترتبط بمظهر من المظاهر المادية بل يلجأ إلى تصويرها فى صورة مادية محسوسة . فيقول فى أحد ممدوحيه :

فَتًى يملأُ الشِّيزى ويروى سنانَه ويضربُ فى رأس الكَمىِّ المدَجَّج

ويقول فى مدح عرابة الأوسى :

غَدَاةَ وجدتُ بحْرَك غَيْر نَزْرٍ مَشَارعُــه ولا كَدِر العُيون

ويقول مفتخراً بكرم قومه :

وإنِّى لمن قوم على أن ذَمَمْتِهم إذا أَوْلموا لم يُولِمُوا بالأَنَافِحِ

ويقول أيضاً مفتخراً بشجاعته :

مَعِى رُدَيْنِىٌّ أَقوامٍ أَذودُ به عن حَوْضهم وفريصى غير مرعود

ويقول مصوراً قصر مدة الشباب :

كأَنَّ الشبابَ كان رَوْحَةَ رَاكبٍ قَضى أَرَباً من أَهْلِ سُقْفٍ لغَضْوَرَا

---

(١) الديوان : ٢٢/١٨ . (٢) أراجيز الديوان : ٢٢ البيت الزائد فى الهامش .
(٣) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٦/٢٥ .

ويقول — بعد أن ذكر المال ووجوب المحافظة عليه — مصوِّرا ما يعترى الإنسان من المهمات والحوادث التى تنقض عليه ، كما تنقض الإبل العطاش على الماء :

يَسُدُّ به نَوائبَ تَعْتَريه من الأيام كالنَّهَل الشُّرُوع

كذلك نجده لا يترجم شعوره إلى معان وأفكار ، بل يعمد إلى تصويره فى صورة مادية خارجية ، تضع القارئ فى حالة نفسية تشبه الحالة التى يعانيها ، معتمداً على وحدة التأثير والتأثر النفسيين ، إزاء مشهد حسى فى العالم الخارجى . من ذلك قوله يصور مشاعر الخوف من فراق الحبيبة ، وقد رآها تتأهب للرحيل :

لكنتُ إذا كالمُتَّقى رأسَ حَيَّةٍ بحاجتها إن تخْصِىْ النفسَ تُعْرِج

لقد تحول خوفه من رحيل الحبيبة إلى حية مترصدة ، حريصة على إيذائه ، إنها حية الهموم ، والخوف ، وتوقع الأذى .

ولعل من هذا القبيل قوله يصور يأسه من وصال الحبيبة ، وتعذر الوصول إليها :

وما أَرْوَى — وإنْ كرمتْ علينا — بأَدْنى من مُوَقَّفَةٍ حَرُون
تُطِيفُ بها الرُّمَاة وتتقيهم بأَوْعالٍ مُعَطَّفة القرون

إنه ينقل إلينا شعوره باليأس عن طريق هذا المشهد الخارجى المحسوس ، فهذه الظبية المتحصنة بأعلى الجبل ، ومن حولها الأوعال يحيطون بها ، ويحمونها من الرماة ، لن يجنى الصيادون من وراء طلبها إلا اليأس والحسرة ، وكذلك إحساس الشاعر إزاء وصل صاحبته « أروى » .

ولا شك أن هذا النحو من التصوير مما يزيد المعنى وضوحاً ، ويضفى على الأسلوب لوناً من العمق فى الإيحاء ؛ « لأن التعبير عن الشعور بالصور، يوشك أن يعبر عن كلية التجربة الشعرية ، فهو ينقلها نقلا ، ولا يترجمها ترجمة ، أو يجزئها تجزيئاً »(١) .

وهذا اللون المادى الذى يكاد يطغى على الصور الشعرية فى شعره ، يقوم أكثر ما يقوم على التشبيه ، فهو أنسب الوسائل التصويرية ملاءمة لعقليته البدوية المتأثرة

---

(١) فن الوصف (إيليا حاوى) ١/ ٧٤ .

بطبيعة بيئته المادية ؛ «ذلك أن التشبيه ليس تعبيراً ذهنيًّا مجرداً ، بل صورة تضع القارئ أمام مشهد يشخص المعنى تشخيصاً ، أو يمثله تمثيلا، عوضاً عن أن يفهمه فهماً ، وهو بذلك أبسط مرحلة من مراحل التطور العقلى . . »[1] .

وفى نماذج شعره التى أوردناها فى دراستنا لأغراض شعره أمثلة وافرة لهذا الضرب من التصوير ، الذى أظهر فى كثير منه براعة واقتداراً ، وجدة وابتكاراً ، وخاصة فى فن الوصف ، من مثل قوله فى وصف الحمار الوحشى :

كأَنَّ سَحِيلَه فى مُتَاكل فَجٍّ تَغَرُّدُ شاربٍ نَاءٍ فَجُوع [2]

فهو هنا يسمعنا صوت هذا الحمار ، ولكنه يأبى إلا أن يفيض عليه من جمال نفسه ، فجعله غناء ، ولم يجعله أى غناء ، بل غناء سكران يترنح ، بعيد عن الأهل ، يتألم من فجيعة حلت به ، وهو بهذا يضفى على صوت الحمار لوناً من التطريب ، كأنما يعبر عن مشاعر الألم من الظمأ والاغتراب ،وسط تلك الصحراء الشاسعة القاسية .

وقوله يصف صوت الريح المترددة فى جنبات الصحراء :

كأَنَّ هزيزَ الريح بين فرُوجه عَوَازِفُ جنٍّ زُرْنَ جنًّا بجَيْهما

فالصورة فى هذا البيت ، لم يقصد بها إلى توضيح المعنى ،أو تشبيه صوت بصوت ، بقدر ما قصد بها التأثير فى القارئ ، ونقل ما يحسه الشاعر من الرهبة إزاء أصوات هذه الريح المتجاوبة فى أرجاء الصحراء إلى إحساسه .

وقوله فى التهديد :

والقومُ آتوك بَهْزٌ دون إخوتهم كالسَّيْل يركبُ أَطراف العَبَابيد

والأمثلة على ذلك كثيرة فيما مر بنا من شعره – وخاصة فى الوصف .

هذا ، وللشماخ غير قليل من الصور البيانية القائمة على الاستعارة ، والاستعارة – كما لا يخفى – مركب صعب ، وضرب من البيان عسر ، وبها يكشف الشاعر

---

(١) نفس المرجع : ٧٩/١ . (٢) الديوان : ٢٢/١٠ .

عن مدى قوة خياله ؛ ولذا قال أرسطو : « إن الاستعارة عنوان العبقرية »[١] .

ذلك أن الاستعارة أمعن فى الخيال من التشبيه ؛ « لأنها تطمس الأشياء طمساً وتستبدل بها أشباهها »[٢] .

ومن أجل هذا قلت الاستعارة الجيدة فى الشعر الجاهلى بعامة ، بينما كثر التشبيه ، وبرع فيه الكثيرون من الشعراء الجاهليين ؛ إذ كانت الاستعارة تتطلب عقلية أكثر نضجاً ، وأبعد حضارة من تلك العقلية الجاهلية ، التى كانت أقرب إلى الفطرة والبداوة .

وشاعرنا — على بداوته — قد أتى فى شعره ببعض الاستعارات القوية البارعة ، فطرة وطبعاً ، لا تكلفاً وصنعة . فمن ذلك قوله يصف فعل الريح بالسحاب :

من صَوْبِ ساريةٍ أطاعَ جَهَامُها نكباءَ تَمْرِى مُزْنَها أَوْدَاقا[٣]

فانظر كيف رأى الشاعر بعين خياله شبهاً بين السحابة والناقة من جهة ، والريح وحالب الناقة من جهة أخرى ، على بعد ما بين هذه الأشياء من شبه فى عالم الواقع ؟ ! وكيف ربط بينها فى هذه الصورة الرائعة ، فإذا للسحابة ضرع تمسحه الريح فتدر بالمطر الغزير .

وقوله فى ليل لم يشرق صبحه بعد :

بعثْتُهُم والليلُ حَيْرانُ ضاربٌ بأَرْوَاقه والصبحُ لم يَتَبَلَّج[٤]

وقوله يصور انكشاف الظلام ، وشروق ضوء الفجر بعد أن ذكر الناقة :

وقد لبستْ عند الإلَهَةِ ساطعاً من الصبح لما صَاحَ بالليل نَفَّرا[٥]

إن الشاعر هنا تولى هذه الظاهرة الطبيعية بخياله ، فلم يعد يراها كما هى فى

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى (مصطفى سويف — دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١) ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٢) فنون الأدب (هـ . ب . تشارلتن — تعريب زكى نجيب محمود — لجنة التأليف والترجمة والنشر الـ.درة سنة ١٩٤٥) ص : ٨٢ .

(٣) الديوان : ١٣/١٦ .

(٤) الديوان : ٢ — البيت الزائد فى الهامش عقب شرح البيت (٢٩) .

(٥) الديوان : ٥/٤٣ .

الواقع ، بل غدت فى خياله معركة حربية بين جيشين ، فيها انتصر النهار على الليل ، أو النور على الظلام ، ومن عادة الهازم أن يصيح بالمهزوم فيفر أمام صيحاته المروعة .

ولعل الفرزدق نظر إلى هذا البيت حين قال :

والشَّيْبُ ينهض فى السَّوادِ كأَنه ليْلٌ يصيحُ بجانبيْه نهارُ[1]

ومن استعاراته البارعة قوله :

وإذْلاَجِى إذا الظلماءُ أَلقتْ مراسيها وهادٍ لا يجورُ[2]

أرأيت كيف يمعن الشاعر فى الخيال ، فيرى الليل — وقد لف الكون بظلامه الشديد الثقيل ، الجاثم على صدر الكون — سفينة ألقت مراسيها فى الماء ، فهى تمسكها حتى لا تسير !؟

وقوله — بعد أن ذكر الإبل — :

إن تُمْس فى عُرْفُطٍ صُلْع جماجمه من الأَسالِق عارى الشوك مجرود[3]

إن رءوس أغصان هذا النبات التى سقط عنها ورقها ، أو أكل ، غدت فى خياله جماجماً تساقط ما عليها من الشعر .

ونكتفى بهذا القدر ، على سبيل المثال لا الحصر ، ويستطيع القارئ لشعره أن يجد لهذه الأمثلة نظيراً ، لا يقل عنها روعة فى الخيال ، وجمالا فى التصوير ، وهى كلها شاهدة على أن خيال الشماخ ، لم يكن — دائماً — متعلقاً بالواقع يحبو ويتزاحف من حوله ، بل كان يحلق أحياناً ، فيرى بين الأشياء التى تبدو منفصلة — فى الواقع لا علاقة لأحدها بالآخر — روابط وصلات لا يدركها إلا من وهب الفطنة ، ورهافة الحس ، وقوة الخيال .

ومن الصور البيانية التى اصطنعها الشماخ فى تصوير معانيه الكناية ، وحسن التعبير بالكناية يدل على مقدرة بلاغية عالية لدى الشاعر ، فهى تخدم الأسلوب

---

(١) شرح ديوان الفرزدق (الصاوى) ٤٦٧/٢ ، وأساس البلاغة : ٣٦/٢ ، وسمط اللآلى ٧١١/٢ .

(٢) الديوان : ٧/٦ .

(٣) الديوان : ١٤/٤ .

من حيث كونها مظهراً من مظاهر تقصير العبارة ، وإدماج أجزائها ؛ إذ أنها وسيلة للإبانة عن اللازم والملزوم جميعاً باللازم وحده .

هذا إلى جانب أنها تحقق لوناً من ألوان الجمال ، قد لا يفى بالتعبير عنه غيرها . كما أنها تخدم المعنى بتأكيده ، وذلك يرجع إلى « أنها فى صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفى طيها برهانها ، وتضع المعانى فى صورة المحسات ، وهذه خاصية الفنون ، فإن المصور ، إذا صور لك صورة للأمل ، أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه ، واضحاً ملموساً »(١).

وكنايات الشماخ كثيرة ، قليلة الوسائط ، دانية الخيال ، فطرية ، ومع ذلك فهى تسبغ على كثير من الصور جمالا خلاباً بفطريتها وبساطتها .

من ذلك قوله يصور ندم الصياد وحسرته ، حين رمى جماعة من حمر الوحش فأخطأ ، وولت الجماعة هاربة :

فلهَّفَ أمَّه لما تولَّتْ وعَضَّ على أَناملِ خائباتِ

وقوله فى جماعة من النساء ، من رجز له :

يصِفْن بالقيظ على رَكِيَّاتْ
وضَعْن أنماطاً على زَرْبِيَّاتْ

يكنى بذلك عما هن فيه من نعمة وترف .

وقوله يتغنى ببعض شمائله ، فى رجز له :

يسْرى إذا نام بنو السَّرِيَّاتْ
يبيت بين شُعَب الحارِيَّاتْ
جوَّاب ليل مِنْجَر العَشِيَّاتْ (٢)

يكنى بذلك عن شجاعته ، وقوة احتماله ، وتعوده على الأسفار .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٢/١٦ — ١٨ .

ومن بديع كناياته ، ما قاله فى إحدى صاحباته :

بَيْضَاءُ لا يَجْتَوى الجيرانُ طلعتَها ولا يَسُلُّ بفيها سيفَه القيلُ

كناية عن جمالها ، وعفة لسانها ، مما يجعلها محببة إلى جيرانها .

وقوله فى أحد ممدوحيه :

أَبَلَّ فلا يرضى بأَدنى معيشةٍ ولا فى بُيوتِ الحَىِّ بالمُتولِّجِ

كناية عن بعد همته ، وعفته .

وقوله يتهدد أحد خصومه :

وإن أَبَيْتَ فإنى واضعٌ قدمى على مراغم نَفَّاخِ اللَّغاديد

كناية عن شدة إذلاله . . . إلى غير ذلك ، مما هو كثير فى شعره .

على أن له صوراً عن طريق الكناية ، بعضها معيب ؛ لما فيه من خلق البداوة الجافى الغليظ ، كقوله فى مدح عرابة يخاطب ناقته :

إذا بَلَّغْتِنِى وحملتِ رحْلِى عَرَابَة فاشْرَقِى بدم ‖ الوتين[1]

كناية عن هلاكها ، والدعاء عليها بالموت ؛ لأنه لن يحتاج إليها حينئذ ، وكان الأولى به أن يكرمها لا أن يدعو عليها بالهلاك فيسىء مكافأتها ، ومهما قيل فى الاعتذار عنه فإنه لن يغير شيئاً من حقيقة تلك الصورة ، التى تدل على عدم الوفاء ، وجفاء الطبع[2] .

ومن كناياته البدوية الخشنة ، قوله فى إحدى صاحباته :

منعمةٌ لم تلْق بؤْس معيشةٍ ولم تَغْتَزِلْ يوماً على عُودِ عَوْسَجِ

فمبلغ التنعم والترف ودليلهما عنده أن صاحبته لا تغتزل على عود عوسج ، وهو يريد بلا ريب أن يعبر عن أنها مصونة ، مترفة ، لا تعمل فى حاجة نفسها ، بل يخدمها الآخرون ، ولكن تصويره لهذا المعنى تعوزه رقة الغزل . انظر إلى قول امرئ القيس — مثلا — فى مثل هذا المعنى :

---

(١) الديوان : ٨/١٨ .

(٢) انظر : تفصيل القول فى هذا البيت : ص ٣٤٠ — ٣٤٣ من هذا الكتاب .

وتعْطُو برخْصٍ غير شَثْن كأَنه أَساريعُ ظبْيٍ أَو مساويك إسحل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل [١]

فإذا تجاوزنا عما فى البيت الأول من تشبيه بدوى، وجدنا امرأ القيس يصف ما تتقلب فيه صاحبته، من نعمة يدلل عليها بأنها نؤوم الضحى ، لا تنتطق فى الصباح ملابسها الخفيفة لتعمل ، بل لتتحفف ، كما يدلل عليها بطراوة أناملها ونعومتها ، شأن المترفات ، وهكذا يصف الشماخ بدوية من بيئته ، ويصف امرؤ القيس حضرية من بيئته ، فهو ملك وابن ملك .

٥ — يضم ديوان الشماخ (١٨) قصيدة شعرية ، كما يشتمل على (٤) قطع من الرجز ، هى كل القطع المنسوبة إليه من أراجيز الديوان .

أما القصائد الشعرية فمنها : (٣) قصائد كل منها أقل من عشرين بيتاً ، تتراوح أبيات القصيدة من : ١٠ أبيات إلى : ١٦ بيتاً وهى القصائد : ٣، ٩، ١٥ . وعدة أبياتها كلها (٣٨) بيتاً . ومنها : (٦) قصائد لا يزيدكل منها على (٢٩) بيتاً ، وتتراوح أبيات القصيدة من : ٢١ بيتاً إلى ٢٩ بيتاً ، وهى القصائد : ١ ، ٦ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، . وعدة أبياتها كلها (١٤٠) بيتاً .

ومنها : (٧) قصائد لا يزيد كل منها على (٤٨) بيتاً ، وتتراوح أبيات القصيدة من : ٣١ بيتاً إلى ٤٨ بيتاً ، وهى القصائد : ٤، ٥، ٧، ١٠، ١١، ١٣، ١٤ وعدة أبياتها كلها (٢٣٧) بيتاً .

ومنها : قصيدة واحدة عدة أبياتها (٦٤) بيتاً ، وهى القصيدة: ٢ ،وأخرى عدة أبياتها (٥٧) بيتاً ، وهى القصيدة : ٨ .

وأما الأراجيز : فمنها : (٣) قطع كل منها أقل من عشرة أبيات، وتتراوح أبيات الأرجوزة من : ٦ أبيات إلى : ٩ أبيات ، وهى الأراجيز : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ وعدة أبيات هذه الأراجيز كلها (٢٢) بيتاً .

---

(١) ديوان امرئ القيس (أبو الفضل) : ص ١٧ ،الشثن : الغليظ الجافى . ظبى : اسم رملة هنا . وأساريعه : دواب بيض تكون فيه . الإسحل : شجر يستاك به. لم تنتطق : لم تشد عليها نطاقا . التفضل : لبس ثوب واحد ، أى ليست بخادم فتتفضل وتنتطق للخدمة (عن الديوان) .

وأما الأرجوزة الرابعة فعدة أبياتها : (٢٣) بيتاً ، وهى الأرجوزة : (٢٢) .

والقصائد التى تقل أبيات كل منها عن عشرين بيتاً ، تتحدث عن موضوع واحد ، ما عدا القصيدة : (٩) فتتناول أكثر من ثلاثة موضوعات : فالأبيات الثلاثة الأولى فى النسيب ، يقطع الشاعر بعدها كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر فى وصف الصحراء فى البيتين : ٤ ، ٥ مستخدماً « واو رب » وسيلة إلى هذا الاستئناف ، ويتلطف فى التخلص إلى وصف الناقة بقوله :

إذا ما حرَابىُّ الظهيرة لم تَقِلْ نسأْتُ بها صَعْرَاءَ طال امتعاضُها

وبعد ستة أبيات يقطع كلامه عن الناقة ، ويستأنف كلاماً آخر ، فى التمدح بشجاعته وعزيمته إلى آخر القصيدة ، وبدأ هذا الاستئناف « بواو رب » أيضاً .

أما القصيدتان الأخريان فيربط أبيات كل منهما وحدة الموضوع ، فالقصيدة (٣) تتحدث عن موقف له مع امرأة من بنى سليم أصهاره ، وقد بدأها بذكر تعرض هذه المرأة للركاب تسألهم عما فعل الشماخ بزوجة له من قومها ، وأتبع ذلك بذكر أنه لا شأن لها بذلك ، وأنها لو كانت مكان هذه الزوجة لما فعلت به ما فعلته صاحبتها ، ومن ثم ، فإن من حقه أن يؤدب هذه الزوجة ما دامت قد نشزت به ، دون مسوغ لذلك ، ثم وجه الخطاب إليها ذاكراً أن قومها يشيعون عليه كلاماً لايليق ، ويبدو أنها تناولت قومه بالذم ، فرد عليها ، ممتدحاً قومه ، ذامًّا قومها ، مهدداً إياهم .

وهكذا تترابط الأبيات فى هذه القصيدة ترابطاً قويًّا ، يرجع إلى وحدة موضوعها ، وتسلسل الأحداث فيها تسلسلا طبيعيًّا .

وفى القصيدة : (١٥) يتحدث عن قصة هذه الزوجة السلمية ، المشار إليها فى القصيدة السابقة (٣) فيذكر أنها هجرته فجأة ، وأنه لا يعلم سبباً لهذا التصرف منها فقد كانت على خير حال ، ويلومها على هذا التصرف ، فهو لم يسئ إليها ، وكيف وقد ساق إلى الحى مالها ؟ كما أنها لم تختبر أخلاقه بعد ، فتعلم أنه سينعم بالها ، وأنها سوف تندم على تسرعها فى هذا الهجر ، الذى عرضه إلى شماتة الناس ، ثم يذكر أنها شكته إلى الحاكم ، وأن قومها جاءوا معها لنصرتها ، وطالبوه باليمين

فأبى ليغريهم بقبولها منه ؛ ثم حلف ليتخلص من وعيدهم ، وتهديدهم إياه . وأثنى فى النهاية على الحكم ، الذى ندبه الخليفة للفصل فى هذه الخصومة ؛ لأنه ساعده على التخلص من هذا الموقف الشديد .

فالحوادث فى القصيدة مرتبة ترتيباً طبيعياً ، ومن ثم ، فالأبيات أخذ بعضها برقاب بعض ، والقصيدة متماسكة بفضل وحدة الموضوع .

والقصائد الباقية كلها يتحدث فيها الشاعر عن أكثر من موضوع :

ففى القصيدتين : ١ ، ١٦ تحدث فى كل منها عن موضوعين ، فبدأهما بوصف ناقته — منفردة فى الثانية ، ومع غيرها من الإبل فى الأولى — ثم قفّاه بوصف الحمر الوحشية ، وقد أحسن فى كليهما الخروج من وصف الناقة إلى وصف الحمر ، عن طريق تشبيه ناقته فى سرعتها وقوتها بحمار الوحش . فقال فى الأولى بعد أن تحدث عن تفوق ناقته ، على الأينق التى كانت تباريها ، على ما كان بهذه الناقة من علة :

كأَن قتود رحلى فوق جأْبٍ صنيع الجسم من عهد الفلاة

ثم استطرد — على طريقته التى سبق أن أشرنا إليها فى الكلام على أسلوبه فى الوصف — إلى وصف هذا الجأب ، وأتنه ، وما حدث لهذه الجماعة من الحمر مع الصياد ، عند ورودها الماء ، إلى آخر القصيدة ، وابتدأ الثانية (١٦) بقوله :

كأنى كسوت الرحل جَوْناً رَبَاعِياً بليتَيْه من زَرِّ الحمير كُلُوم

ثم استطرد إلى وصف هذا الحمار وأتنه ، وما كان منه ومنهن ، وذكر الصياد الذى تربص لهذه الحمر عند الماء إلى آخر القصيدة .

وقد ذكرنا فيما سبق ، أننا نميل إلى أن كلا من هاتين القصيدتين ناقصة من أولها[1] ، وأنه ربما كان لكل منهما مطلع آخر سقط من نسخ الديوان التى بين أيدينا .

أما القصائد : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ . فتحدث فى كل منها عن ثلاثة

---

(١) انظر مقدمة « ديوان الشماخ بن ضرار » نشرة دار المعارف بتحقيق المؤلف .

موضوعات وقد بدأها جميعاً بالنسيب ، وأحسن فيها التخلص من موضوع إلى آخر ، ولنضرب لذلك عدة أمثلة :

فى القصيدة : (٥) رأى الشاعر ديار الحبيبة التى أقفرت بعدها ، فهيج مرآها أشجانه وحنينه إلى أيامها ، أيام الشباب ، وأسلمته الذكرى إلى الحديث عن الشيخوخة ، والتحسر على الشباب الذى ولى مسرعاً ، وعن صحبته الأوفياء أيام الشباب ، الذين كانوا يعينونه على الشدائد ، والذين يذكرهم الآن وقد أثقل الدين كاهله ، ولا يجد من يعينه على قضائه ، وقد أحسن الانتقال من النسيب إلى ذلك كله بقوله :

فقلت لها : يا أم بيضاءَ إنه كذلك بَيْنَا يُعْرف المرء أُنْكرا

أى أنه غدا شيخاً فلو رأته لأنكرته ، وبعد أن تحدث عن هذه الهموم ، وأراد أن ينتقل إلى وصف الناقة ، قال :

ولما رأَيت الأَمر عَرْش هَوِيَّةٍ تسليّت حاجات الفؤاد بِشَمَّرَا

أى أنه حينما اعترته هذه الهموم ، أراد أن يسريها عنه بركوب ناقته ، والسفر عليها ثم أفاض فى وصف ناقته وسرعتها وقوتها ، ورحلته الطويلة عليها ، وكأنما يعنى ، أن مثل هذه الرحلة الطويلة على مثل هذه الناقة مما يمتع النفس ، ويسرى الهم ، وختم قصيدته بهذا الوصف .

وفى القصيدة : (٧) تحدث عن حبيبته ، ورحلتها ، ثم تلطف فى التخلص إلى وصف الناقة بقوله :

فإن تلك قد شَطَّتْ وشطَّ مَزَارُها وجذَّم حبْل الوصل منها أَميرُها
فما وَصْلُها إلا على ذات مِرَّةٍ يُقَطِّع أَعناقَ النواجى ضَرِيرُها

وكأنما أراد أن يبين قدرة هذه الناقة على القيام بهذه المهمة الشاقة ، فأخذ يصفها بالقوة ، والتعود على الأسفار والنشاط . . . إلخ .

وقد مهد للانتقال إلى وصف الحمر الوحشية ، التى شبه بها ناقته ، فى سرعتها وقوتها ونشاطها ، بقوله :

كأَن قُتُودى فوق أَحْقَب قَارِبٍ أَطاعَ له من رامتَيْن غَمِيرُها

واستطرد إلى وصف الحمر حتى نهاية القصيدة .

وفى القصيدة : (١٢) بدأ بذكر الحبيبة ، وأنه لا يسلى تذكرها ، مع أنها لا تجود له بموعود ، وتخلص من ذلك إلى وصف ناقته بقوله :

هل تسلينك عنها اليوم إذ شحطت عَيْرانة ذات إرقال وإعناق

ثم شرع فى وصف هذه الناقة أثناء رحلته عليها ، وما كابدته من مشقة ، وما أبدته من ضروب السير ، ثم تخلص إلى المدح بقوله :

إليك أشكو عَرَابَ اليوم خلَّتنا ياذا العلاء وياذا السؤدد الباقى .

وكأنه أراد : إنما تكبدت ناقتى هذه المشاق ؛ لتحملنى إليك فأشكو حاجتى إلى جودك ، ثم يأخذ فى المدح حتى نهاية القصيدة ، إلا أنه لم يكن موفقاً فى تقديم الشكوى على المديح ، وقد رأى أهل البصر بالشعر قديماً أن ما ينبغى أن يتبع فى مثل ذلك هو تقديم المديح ، ثم التخلص منه إلى الشكوى ، ثم التخلص من الشكوى إلى الاستماحة (١).

وفى القصيدة : (١٨) يتحدث عن الحبيبة التى لقيها عند موضع ماء فى يومين فلم ير منها ما يحب ، ويصور يأسه من وصالها ، وعندما أراد الانتقال إلى وصف الناقة قال :

ولست إذا الهموم تحضَّرتْنى بأَخضع فى الحوادث مستكين
فسلِّ الهمَّ عنك بذاتَ لَوْثٍ عُذَافِرةٍ كمِطْرَقةِ القُيون

فمهد لوصف الناقة بذكر يأسه من وصال الحبيبة ، وكأنما أهمه حالها معه ، وأراد أن يظهر تجلده أمام هذه الحبيبة النافرة ، وأنه لا يذل ولا يخضع لما ترميه به الأيام من شدائد ، فركب ناقته ليسرى عن نفسه هذا الهم ، وكذلك أحسن التخلص من وصف الناقة إلى المدح ، بقوله مخاطباً ناقته :

إذا بلَّغتنى وحملتِ رحْلِى عَرَابةَ فاشْرقى بدم الوتين
إليكَ بعثتُ راحلتى تشكَّى كُلُوماً بعد مَقْحَدها السمين

---

(١) عيار الشعر : ٦ .

وقد أثنى بعض القدماء على تخلص الشماخ من وصف الناقة إلى المدح بهذا القول [١] .

ونرى مثل هذا الانتقال الموفق من موضوع إلى آخر فى القصيدتين : ٦ ، ١١ .

أما قصائده التى تناول فيها أكثر من ثلاثة موضوعات ، فقد راعى حسن الانتقال من موضوع إلى موضوع فى أكثرها ، ولم يهتم بذلك فى الباقى .

ففى كل من القصيدتين : ٨ ، ١٠ يتحدث عن خمسة موضوعات ، وأحسن التخلص — غالباً — من موضوع إلى آخر فى كل منهما .

وفى كل من القصيدتين : ١٣ ، ١٤ . يتناول أربعة موضوعات ، وحسن الانتقال فيهما من موضوع إلى آخر .

والقصيدة : ٤ تحدث فيها عن خمسة موضوعات : بدأها بالنسيب ، وانتقل إلى وصف ناقته ضمن قطيع من الإبل ، ثم إلى الذم والتهديد ، ثم إلى وصف إبل سمينة ، ثم إلى الفخر بنفسه وقومه ، ثم عاد إلى التهديد والهجاء ، وختم القصيدة ببيت واحد فى الفخر ، والترابط بين كثير من هذه الموضوعات ضعيف . وأكثر انتقاله فيها من موضوع إلى آخر يأتى فجأة بلا مناسبة .

والقصيدتان : ٢ ، ١٧ . تحدث فى الأولى منهما عن سبعة موضوعات ، وفى الثانية عن ستة ، والتفكك بين كثير من موضوعات كل منهما واضح ، فأكثر الموضوعات مستقل بعضها عن بعض .

وهو يبدأ كل موضوع — غالباً — « بواو رب » وكأنما يستأنف كلاماً جديداً أو قصيدة جديدة ، وإن أحسن الانتقال من وصف الناقة إلى وصف الحمر فى الأولى ، ومن وصف الناقة إلى المديح فى الثانية .

ولا شك أن هذا التفكك والاضطراب ناشئ عن كثرة الموضوعات التى تناولها الشاعر فى كل منهما ، كذلك ينبغى ألا ننسى أن الرجل كان ينشد الشعر ارتجالا ، ولم يكن يؤلفه ، ويصدر فيه عن روية وأناة .

---

(١) انظر قواعد الشعر (ثعلب) : ٦٠ — ٦١ .

أما أراجيزه ، فقد تحدث فى إحداها عن موضوع واحد ، وهى الأرجوزة : ٢٦ حيث وصف فيها الإبل ، ومن ثم ، فأبياتها شديدة الارتباط بعضها ببعض .

وتحدث فى كل من الأرجوزتين : ٢٢ ، ٢٥ عن موضوعين : فبدأ الأولى بالنسيب الذى أحسن الخروج منه إلى الفخر بقوله :

ثم قَعَدْن بركة النَّجيَّاتْ

مَنْ راكبٌ يهدى بها تحياتْ

أروع خراج من الداويَّات ... إلى آخر الأرجوزة .

وبدأ الثانية بوصف الإبل ، ثم تلطف فى التخلص منه إلى التمدح بخبرته بقيادة الركب فقال :

يهوى بهن نِحْرِىٌّ هَوَّاس

وهو بذلك يرد على تعريض الجليح بن شميذ به فى الأرجوزة (٢٣) وكان رائعاً فى قوله فى نهاية الأرجوزة :

ليس بما ليس به بأْسٌ باس

ولا يضر البَرَّ ما قال الناس

وإنه بعد اطّلاع إيناس

وأما الأرجوزة : ٢١ . فيبدو أنها ناقصة ، وأن الشماخ لم يتمها كما يفهم من كلام راوى أراجيز ديوانه[1]، وهو يبدؤها بذكر لهفة صاحبته وخوفها عليه ، وهو مريض ، فى أربعة أبيات ، ثم يعرض فى بيتين بشخص ، ويصف محاسن صاحبته فى بيت واحد .

هذا . ولقد كان النسيب وما يتصل به بدء الخمس عشرة قصيدة وأرجوزة ، وهى القصائد : ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ . والأرجوزتان : ٢١ ، ٢٢ .

---

(١) راجع : مقدمة الأرجوزة : ٢١ من أراجيز الديوان .

كما كان ذكر الناقة والإبل بدءا لقصيدتين ، وأرجوزتين ، وهما القصيدتان : ١ ، ١٦ والأرجوزتان : ٢٥ ، ٢٦ .

وفى ديوانه قصيدة واحدة بدأها بخطاب امرأة تدعى « عائشة » ، يحتج عليها بأن أهلها يحافظون على إبلهم ، بينما هى تلومه على رعاية إبله ، وإصلاح ماله . وهى القصيدة : (١٠) .

أما القصيدتان الباقيتان (٣ ، ١٥) فقد بدأت كل منهما بدءاً خاصًّا يناسب موضوعها ، وقد مر بنا تفصيل ذلك فلا نعيده هنا .

وأما ما جمعناه له من قطع وأبيات وأنصاف الأبيات ، فى ملحق الديوان ، فأغلب الظن أنها أجزاء من قصائد ضاعت ، ولم يبق منها إلا هذه البقايا ، التى روت المصادر معظمها أبياتاً مفردة ، واجتهدنا نحن فى ترتيبها ، ومن ثم فهى لا تدخل فى بحثنا هنا .

والقصيدة الوحيدة التى أمكننا العثور عليها كاملة تقريباً ، هى القصيدة (٣٩) من ملحق الديوان ، وقد تحدثنا عنها عند الكلام على الرثاء فى شعر الشماخ ، بما يغنى عن إعادة الكلام عليها هنا [١] .

هذا ، وحسب الشماخ — وهو الشاعر البدوى المرتجل — أن تسلم له سبع عشرة قصيدة وأرجوزة من الاضطراب والتفكك — فطرة وطبعاً — من مجموع قصائده وأراجيزه فى الديوان ، وعدتها : اثنتان وعشرون قصيدة وأرجوزة ، مما يبين عن لطف حسه ، وحذقه ، ومقدرته الفنية .

٦ — أما أوزان شعره ، وحروف رويه ، فتوضحها الجداول الآتية :

---

(١) راجع : ص٢٦١ — ٢٦٣ من هذا الكتاب .

(١) جدول بحور شعره، وعدد أبياته فى كل بحر منها

رقم مسلسل	البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٣٤٦	٥٣ ٪ تقريباً
٢	الوافر	١١٣	١٧ ٪ »
٣	البسيط	٩٢	١٤ ٪ »
٤	الكامل	٤١	٦ ٪ »
٥	الرجز	٥٧	٨ ٪ »
	المجموع الكلى	٦٤٩	

(ب) جدول يبين عدد أبيات كل فن من فنونه فى كل بحر من البحور السابقة

رقم مسلسل	البحر	الوصف	النسيب	المديح	الفخر	الذم والتهديد	نظرات فى الحياة والناس	الرثاء	شعر يقص فيه خبره مع زوجته السلمية
١	الطويل	٢١٨	٧٣	٧	١٢	١	٧	٤	٢٠
٢	الوافر	٨٢	١٥	١٠	٣	—	٢	—	—
٣	البسيط	٥٢	١٠	٩	٦	١٧	—	—	—
٤	الكامل	٢٩	١٢	—	—	—	—	—	—
٥	الرجز	١٣	٢٠	٥	٩	٣	٥	—	—
	المجموع الكلى	٣٩٤	١٣٠	٣١	٣٠	٢١	١٤	٤	٢٠

(ح) حروف الروى فى شعره ورجزه، وعدد أبيات كل حرف منها

رقم مسلسل	الحرف	عدد الأبيات
١	الهمزة	١
٢	الباء	١١
٣	التاء	٤٤
٤	الجيم	٦٥
٥	الحاء	١٠
٦	الدال	٣٢
٧	الراء	١٢٤
٨	الزاى	٥٧
٩	السين	١٠
١٠	الضاد	٢٢
١١	العين	٣٤
١٢	الفاء	٧
١٣	القاف	٨٦
١٤	اللام	٦٢
١٥	الميم	٤٧
١٦	النون	٢٩
١٧	الياء	٨
	المجموع الكلى	٦٤٩

ويمكن أن نستخلص من هذه الجداول عدة ملاحظات [١] :

(ا) كل شعر الشماخ جاء فى بحور : الطويل والوافر والبسيط والكامل. وهى بحور طويلة كثيرة المقاطع، فإن كان لذلك دلالة على مدى انفعال الشاعر

(١) تعتمد ملاحظاتنا هنا على ما يقرره بعض الباحثين فى أبحاثهم التى تتناول موسيقى الشعر. وسنحرص على الإشارة إلى مراجعنا فى ذلك.

فى شعره — بصفة عامة — فيبدو أن هذا الانفعال كان من النوع الهادئ الرزين ، لا الثائر العنيف [١] .

(ب) أكثر شعره فى الوصف جاء فى بحر الطويل ، وهو بحر التأمل والعمق المناسبين للوصف ، وخاصة وصف الحيوان ؛ لما فيه من استقصاء الموصوف ، وهيئاته ، وأحواله ، ثم إن فى خفاء جرسه ، واعتداله ، وطول نفسه ما يعين على الوصف ، ذى الطابع الذى يشبه القص ، ويتطلب من السامع أن يصغى ، ويتفهم ، دون أن يشغل بدندنة النغم ، وجلبة التفاعيل [٢] .

على أن نسبة غير قليلة من وصف الشماخ جاءت فى بحرى الوافر والبسيط ، والأول منهما سريع النغمات فيه رنة قوية [٣] ، لا تناسب الوصف الذى يتطلب التأمل والهدوء الموسيقى ، كما أن فى الثانى منهما دندنه تجعل نغمه غير خالص الاختفاء ، وهو يصلح للوصف الذى تبدو فيه العاطفة ظاهرة جلية ، « فإن كانت العاطفة التى وراء الوصف من النوع الهادئ المتأمل ، فقل أن يصلح البسيط لذلك » [٤] .

(حـ) كذلك أكثر نسيبه فى بحر الطويل ، فإذا لاحظنا أن نسيبه يغلب عليه طابع الحزن والإخفاق ، واليأس من وصل الحبيبة ، وأن أكثره يتعلق بذكريات الأيام الخوالى ، كان الطويل لطوله ، وكثرة مقاطعه ، وخفاء جرسه صالحاً لأن يصب فيه أشجانه ، ويجتر فيه ذكريات ماضيه الحزينة ، فى رزانة وترسل ، وجلال ، وتؤدة ، تلائم مقام الحسرة والأسف الهادئ [٥] .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما فى شعره فى النسيب من وصف محاسن صاحباته ، وتذكرنا ملاءمة الطويل للوصف ، تبين لنا مدى مناسبة الطويل لنسيبه فى انفعاله ومعانيه . كذلك لما كانت أبياته فى الرثاء يبدو فيها الحزن العميق الهادئ ، جاءت

---

(١) انظر : موسيقى الشعر : ص ١٧٦ .

(٢) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب . . . : ١/٣٩٢ — ٤٠٨ .

(٣) نفس المرجع : ١/٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) نفس المرجع : ١/٤٦٠ وانظر : ص ٤٥٢ من نفس المرجع أيضاً .

(٥) انظر : موسيقى الشعر : ١٧٥ ، والمرشد إلى فهم أشعار العرب : ٣٩٢ وما بعدها ، وتاريخ آداب العرب (مصطفى صادق الرافعى) ٣/١٣ ، والتفسير النفسى للأدب (عز الدين إسماعيل) ص ٨٠ — ٨٢ .

كلها فى الطويل ، الذى يناسب مواقف الجد ، والاتزان العميق .

(د) إذا رجعنا إلى أبياته فى الفخر فى القصيدة : (٤) أمكننا أن نلاحظ ما فيها من انفعال ثائر غاضب ، إذ جاءت فى مناسبة الرد على هجاء أحد خصومه إياه ؛ ولذا كان مجيئها فى بحر البسيط مناسباً ؛ لما فى رنة البسيط من القوة ، التى تجعله صالحاً لمواقف العنف والانفعال الظاهر[١] ، ومن أجل هذا أيضاً يكاد يكون كل شعره فى الذم والتهديد فى بحر البسيط[٢] .

بيد أن أكثر ما جاء من فخره فى الأوزان الأخرى كان فى بحر الطويل ؛ ولذا فنحن نلمح فيه الانفعال الهادئ ، حيث يكاد ينعدم عنصر الاستثارة والغضب المتوفرين فى القصيدة : (٤) .

(هـ) وأكثر مديح الشماخ وأصدقه وأفخمه ، وأقواه عاطفة ، هو الذى قاله فى عرابة الأوسى (١٩ بيتاً) — كما رأينا من قبل — وقد جاء كله فى بحرى الوافر والبسيط ، وكلاهما مما يصلح للمديح القوى الفخم[٣] الذى ينم عن انفعال الشاعر إلى حد ما .

وبقية شعره فى المديح نكاد لا نحس فيه بانفعال الشاعر ، وإن أراد أن يضفى عليه لوناً من الجد والجلالة ؛ ولذا ناسبه بحر الطويل ، لطول مقاطعه ، وهدوء موسيقاه .

(و) ولما كان بحر الطويل من أصلح البحور للشعر الذى يغلب عليه طابع القص والتفصيل ، فقد جاء فيه كل شعره الذى يقص فيه خبر زوجته السلمية ، وما يتصل بها من خبر تعرض امرأة من قومها له[٤] .

ولصلاحية الطويل للمعانى التى فيها تأمل هادئ ، مستخرج من أعماق النفس ، جاء فيه أكثر شعره الذى يعبر عن نظراته فى الحياة والناس .

أما رجزه فقد كان أكثره فى النسيب ، والوصف ، والفخر ، أما النسيب

---

(١) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٤٧١ .

(٢) راجع دراستنا لشعره فى الذم والتهديد : ص ٢٥٢ — ٢٥٦ . من هذا الكتاب

(٣) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٣٥٩ ، ٤٦٩ .

(٤) راجع : قصيدتيه : ٣ ، ١٥ فى الديوان .

فقد كان من ذلك النوع الخفيف الذى يكثر فيه الإلمام السريع بوصف محاسن النساء ، وكذلك كان وصفه فى رجزه ، ليس فيه ذلك الاستقصاء والعمق الذى نراه فى شعره فى الوصف .

والفخر فى رجزه لا يعدو أن يكون ترنماً بحسن قيادته للركب فى السفر ، وخبرته بدروب الصحراء ومسالكها ، مع اعتياده السفر ، وتحمله لمشاقه .

وكل هذه الألوان الخفيفة من النسيب ، والوصف والفخر ، أنسب ما تكون للترنم والحداء ، وقد كان الشماخ يحدو بها فعلا — كما يتبين من مقدمة أراجيز الديوان .

من هذا العرض السريع لأوزان الشماخ ، ومدى مناسبتها لأغراض شعره ، يمكن القول : بأنه كان موفقاً فى اختيار الوزن الذى يتفق وحركة نفسه ، وينبئ فى الوقت نفسه عن حالته الشعورية بوجه عام(١) .

هذا من حيث أوزان شعره ، ومدى دلالتها على لون موسيقاه ، ودرجة انفعاله فيه ، أما من حيث حروف الروى فى شعره ورجزه ، فأكثرها دوراناً فيهما هى — على الترتيب التنازلى — : الراء ، والقاف ، والجيم ، واللام ، والزاى ، والميم . وأقلها : الهمزة ، والفاء ، والياء ، والحاء ، والسين ، والباء .

وبعد :

فلعلنا بعد هذه الدراسة المفصلة لشعر الشماخ ، فى أغراضه ، وموضوعاته وأساليبه ، نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه ، من الإبانة عن شاعرية الشماخ ، وإبراز جوانبها الفنية المختلفة .

---

(١) انظر فى قضية ملاءمة الوزن فى الشعر القديم للحالة الشعورية عند الشاعر : التفسير النفسى للأدب : ٥٩ — ٦٠ و ٧٧ — ٨٢ . وموسيقى الشعر : ص ١٧٤ — ١٧٧ .